

الشيخ محمد عبد الله

الحالة السياسية والاجتماعية التي كان يعيش فيها - حياته وبيئته - تأثير ذلك في
نفسه ومظاهره في نثره - الفاظه وأسلوبه ومعانيه وميزاته - متناول
كلامه موازنته بغيره من كتاب عصره

بقلم

أحمد الشايب

المدرس بكلية الآداب - الجامعة المصرية

حقوق الطبع محفوظة

مئة ١٩٢٢

الشيخ محمد عبده

١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ

لعل الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مقدمة الرجال المعاصرين الذين لانزال الى اليوم ، وسنبقى الى أمد بعيد متأثرين بمحاولاتهم الاصلاحية في الادب والدين وفي السياسة والاجتماع ، سواء ذلك في القطر المصري وطنه العزيز ، وفي العالم الاسلامي الذي كان فيه خير مصالح ديني ، بل وفي الشرق كله حيث كان يمد بصره وبصيرته في جوانبه فيفرع لهزيمة أمام الغرب ويحاول أن ينفخ فيه روحا فنية عساه ان يستعيد مجده ويسترد سلطانه وجلاله . . . فاذا ذكرنا النهضة الأدبية الحديثة التي أعقبت عصر احتضار اللغة العربية وآدابها ، فالأستاذ ، من أعلامها الخفاقة ، وأقلامها الفاتحة ، وعقولها المفكرة ، وألسنتها الدارة ، وإذا كنا نشعر اليوم بحركة اصلاحية طريفة في المعاهد الدينية والمحاكم الشرعية وفي دور التعليم حيث تتصل الحياة الدينية بالحياة المدنية العلمية فلقد كان الامام واضع أساسها وفانح بابها متأثراً في ذلك أستاذه الفذ السيد جمال الدين الأفغاني على رغم مالقيا من عذت الرجعيين ، وحروب المحافظين ، وإن نحن عرضنا للسياسة التي تصل الشرق بالغرب ، ومصر بأوروبا ، فربما كان محمد عبده خير من انتهج الخطة الخالصة المعقولة لبقى هذه البلاد شر الاستعمار والنفور الاجنبي حتى حمل في سبيل ذلك من السجن والابعاد ما يدلك عنه اليوم من شهوده واتصلوا به في مصر وغيرها .

وأما التقويم الخلق ، واصلاح القوانين ، وبث الفكر السديدة ، وإذاعة الكتب المفيدة ، ومحاربة البدع والضلالات ، والجدب على المصريين والاسلام

فلم يظفر التاريخ الاسلامى منذ قرون خلت بمثل هذا الشيخ دائباً فى ذلك واقفاً عمره مهنجياً براحتة وماله حتى كان رجل الأمة المرجو لدينها ودنياها والمحترم لدى حكامها ورعاياها ولدى الشرقيين والغربيين : فلما مات دون الستين كان موته موت الآمال ورزء الشرق والاسلام .

عصره السياسى

العصر الحديث من ١٢٢٠ هـ و ١٨٠٥ م الى اليوم

ليس من الغريب ان نعتمد على نقطتين اثنتين إذا أردنا ان نتبين أحوال مصر السياسية والاجتماعية فى كل العصور التاريخية ولا سيما هذا العصر الحديث الذى وصل بين أجزاء العالم ومال بالشعوب الى الوحدة العامة وتكوين أسرة عالمية تتجاوب نواحيها بآية حركة علمية أو أدبية أو اختراعية أو فنية .. هاتان النقطتان هما موقع مصر الجغرافى أولاً ثم طبيعتها ثانياً .

فلقد وهب الله مصر هذا النيل المبارك الذى ينتظم فيضه على مر السنين فيجود عليها بطبقة خصيبة تزيد ارضها قوة ، ثم ينظم دوراتها الزراعية على مدى العام ، فالنصرغ الناس منذ القدم الى الزراعة مطمئنين عاكفين لا يزعمهم اضطراب (الفيضان) ولا تقلب الجو العاصف ، وقامت الصحرا ؟ وان تالخصون تحمى هذا الوادى وأهليه من الخلطة القوية المطردة بسائر الشعوب ، فعاش المصريون وادعين قانعين بهذه الحياة الراضية الهينة كأنهم فى حلم لذيد لا يعينهم كثيراً نوع الحكومة أو عنصرها مادامت بعيدة عن العبث بأرزاقهم ، والعدوان على حياتهم الرتيبة وازعاجهم فى هذا الهدوء .

فكان من ذلك أن اشتهر المصريون بالوداعة الكرم وطيب الخلق وصفاء النفس والميل الى الهدوء وقوة الايمان والمحافظة على التقاليد حتى ليجتاح المصلح المجدد الى جهود عنيفة ، ومشقات عدة ليعتق فى هذه الأمة معتقداً أو يحولها عن سبيل لاضطرارها الى ايقاظ تلك الارواح وتنبيهها الى ما يحقدق بها

من شر وما يليق بها من خير ، تجد ذلك في كل رجال الإصلاح المصري واقربهم اليها محمد عبده ، وقاسم أمين ، ومصطفى كامل ، وغيرهم كثير ، ... ولهذا أيضا توالت على وادي النيل حكومات ودول اكثرها غريب دخيل من الفرس والرومان والعرب والانراك والفرقة ، لانكاد احداها تجد معارضة تذكر وإن كانت في المدن وإلى أجل ، ثم تجرى الامور في مجراها الوديع العادي حتى حقت على مصر كلمة عمرو بن العاص « هي لمن غلب » .

وأما موقعها الجغرافي بين الشرق والغرب وتوسطها بين القارات فقد أطلع فيها الدول الناهضة التي تتنافس في السيطرة عليها لتكون مركزاً تجارياً أو سياسياً أو عليا يصل العالمين الغربي والشرقي ولا سيما بعد فتح قناة السويس ، وانتشار المواصلات العالمية ، وتسابق الدول الاوربية إلى استعمار الشرق واستثماره لنشر المتاجر وتغذية الحركة الصناعية في أوربة فتكونت لمصر من هذا صفة (دولية) وأصبحت مسائلها تهمي أغلب الدول العالمية لذلك ، ولكثرة الأجتناس والعناصر التي نزحت اليها تعيش في خيرها الكثير ، فاشتهرت بغناها وحضارتها وتوسط مدنها بين الحركة العالمية والتجارية قديماً وحديثاً ، وآخر الامر رأينا انجلترا وفرنسا تسبقان غيرهما وتتنافسان في الاستيلاء على هذه البلاد متذرعين مسائل شتى حتى انتهت بالاحتلال الانجليزي أيام الحكومة العلوية القائمة

فانظر إذا كم يلقى المجدد السياسي في مصر من العقبات الداخلية والخارجية التي تتصل بالشعب نفسه وبالدول ذوات المنافع في هذا القطر ! . هذا ما جعل المسألة المصرية من أعجب المسائل وأعقدها ، فلم تكذب تبدو على تركيا علامات الضعف آخر القرن الثامن عشر الميلادي حتى جرؤ نابليون لحمل على مصر حملته المشهورة (سنة ١٧٩٨) بمحاول كسر شوكة انجلترا في الشرق وتغيير مجرى الاحوال في لهند ، ولكن انجلترا لم تمهله واضطرته هي وتركيا الى سحب جنوده بعد واقعة (أبي قير) التي اشترك فيها « محمد علي » ذلك الذي وصل بمساعيه الى ولاية مصر سنة ١٨٠٥ م فأسس بذلك هذه الدولة العلوية الحاضرة ، ودعمها

بحيـش قوى طهر به البلاد من الهماليك ، وفتح في سوريا وبلاد العرب والسودان والاناضول واد يجهز على تركيا لولا وقوف الدول في وجهه ، ولـكنه عني بالبلاد المصرية ونهض بها نهضة مادية بمساعدة الفرنسيين ورجال البعث العلمية وقام باصلاح كثير ادارى واقتصادي حتى اشعلت الصناعة وتحسنت الزراعة وساد الامن ، وانتظمت الامور ، وتكونت لمصر رهبة وحياة قوامها العلوم والجيش والصناعات والزراعة وكل ما من شأنه أن يقيم جسم هذه الدولة الناشئة ، وفي آخر عهده ولد (محمد عبده) سنة ١٨٤٥ م (بمحلة نصر) في اقليم البحيرة على المشهور ، فلما كان عهد عباس الاول وسعيد باشا فترت حركة الاصلاح وظهرت فكرة الجرد والاستبداد في الحياة العلمية والادبية وبدأ تدخل الأجانب في شؤون القطر على يد المندوبين (القناصل) وكانت الديون وقناة السويس هي المنفذ الواسع لعبث هؤلاء الأجانب بالحرية المصرية والحكومة القومية ، نعم ان اسماعيل باشا حاول ان يستعيد عهد جده ويقرن النهضة السياسية بالتقدم المادى والعلمى والادبى فلم يوفق تمام التوفيق لما اعترضه من المحن السياسية والاقتصادية وحرص الانجليز والفرنسيين الا تفلت مصر من أيديهم وتقوم حجراً عثرة في طريقهم الى الشرق ، فاستعانوا على ذلك بكل وسيلة وراقبوا المالية والحياة النيابية حتى ضاق الشعب والحكومة ذرعاً واضطرب الجيش ، وشعر الناس بكرامتهم المجروحة وكان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما كثير يعملون لتتوير الرأى العام بواسطة الصحف والتدريس والجماعات الخيرية والمنتديات العامة فضلاً عن الحركات الدستورية النشيطة في اوروبا وتركيا . . . كل ذلك أدى الى انشاء (مجلس النواب سنة ١٨٦٦ م) ولـكنه لم يجرؤ على المعارضة فالصحف أيضاً ، فبقيت الادارة العامة في يد الأجانب وانتشر البؤس والفاقة وكثرت الضرائب وضعف سلطان الحاكم (الخديو) واشتدت المعارضة ضد التدخل الاجنبى وهذا الذى استمر حتى عصر توفيق باشا وكان السبب القوى الثورة العربية المشهورة التى كان جل أعضائها من (الحزب الوطنى) الذى تألف في حلوان حول سنة ١٨٧٨م وانضم اليه سلطان باشا وإشريف باشا وعمر باشا لطفي وعرابى وعبد العال وعلى فهدى والبارودى وغيرهم كثير لهم مجتمعات سرية لتنظيم شئونهم والاستعداد للطوارئ .

كان العربيون يطلبون الحياة الدستورية وتقوية الجيش ليكون الأمر شوري والدولة مهيبة الجانب وقد أشار الى ذلك البارودي في قوله يهنيء توفيق باشا بولايته العرش :

أمران ما اجتماعا لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
«جمع»، يكون الأمر فيما بينهم شوري وجند «للعدو» بمصر

إلا أن هؤلاء العربيين كان منهم المتطرف أمثال عرابي و«عبد العال» كما منهم المعتدل أمثال البارودي ومحمد عبده مستشارهم وداعيتهم الى التؤدة والتروى حتى أغتتوه وثاروا في وجهه أثناء اجتماعهم احدي الليالي ، ومهما يكن من شيء فلم تكن الدول الاوربية ولا سيما انجلترا تسمح بقيام حكومة وطنية قوية بوادي النيل فرصدت الحوادث بيقظة واتخذت منها سبيلا الى احتلال مصر سنة ١٨٨٢ م ولم تجد مقاومة العربيين لفقدهم الحزم والتضامن وعون الحكومة التركية ، ثم عوقبوا بالابعاد ومنهم (الشيخ محمد عبده) الذي قصى عليه بمغادرة مصر اكثر من ثلاث سنين كما ستعرف تفصيل ذلك بعد حين .

يعتبر الاحتلال من غير شك وسيلة السلطان الاجنبى على مصر لذلك بقي موضع المناقشة بين المصريين على اختلاف احزابهم وبين انجلترا الى الآن ، وإن كان قد تم في ظله إصلاح في نواحي الحياة المصرية اقتصادياً وفكرياً واجتماعياً نشير هنا الى محاولات محمد عبده الاصلاحية في التعليم والقضاء ، والأدب والأخلاق أيام توفيق وعباس الثانى ، ولكن تلك الحرب العظمى وما وليها قد هزت العالم وبعثت في المصريين رغبة قوية فى الاستقلال ببلادهم والعمل على بلوغ الكمال سياسياً وعلمياً ، وقاموا يثورون ويحاولون الاتصال بالثقافة العالمية والحياة الحرة الراقية ، ولا يزالون حتى الآن فى جهاد نرجو أن يفوزوا منه بخير نصيب .

عصره الاجتماعى

ذلك ليس من الغريب أن نعد هذا العصر الحديث عهد نهضة اجتماعية أدبية علمية وأن نلاحظ ما بيننا وبين نهضة أوربه النهضة (العباسية) من المشابهة فى بعض النواحي . . . ولم لا ؟ أليست النهضة الأوربية خروجا من القرون الوسطى المظلمة

كما أن هذه النهضة الحديثة لدينا خروج من عصر مظلم سيطر على البلاد العربية بعد القرن العاشر الهجري إلى أوليات نهضتنا ؟ بل إن عهد الأتراك والمماليك إنما كان قطعة من القرون الوسطى استقرت هنا في الشرق حتى أفرعتها حركة «الاشراق» في الشام ومصر .

وعلام اعتمدت كلتا هاتين على المعارف والآداب القديمة ولا سيما الفلسفية أولاً ثم التصرف فيها بما يناسب الحياة الجديدة ثانياً . . . فكيف الأوروبيون على إحياء المعارف والآداب اللاتينية والأغريقية مباشرة أو بواسطة العرب في اسبانيا وسواها ، ثم بنوا عليها تقدمهم الفكري والعلمي الذي أطرد سيره إلى هذا العصر كذلك عذب الناس في الشام ومصر أول الأمر على الانتفاع بالآداب العربي القديم ثم الاتصال بالحضارة الغربية ولا يزال شأنهم إلى اليوم العمس على التصرف في هذا القديم ليحيوا ويقوم عليه جديد يوافق مقتضيات هذا العصر وحاجة نفوس أهليه .

ولئن شملت النهضة الأوروبية نواحي السياسة والدين والآداب والاجتماع فلا شك أن نهضتنا هذه تحاول إصلاح هذه النواحي أيضاً وكان محمد عبده فيها يشبه (لوثر) المصلح الديني الخطير . . . وآخر الأمر لم لا تكون الثورة العرابية أشبه بالثورة الفرنسية فيما لا يسبها من عنف سياسي ونضج فكري وأدبي وظهور رجالات جالوا فيهما مجالات واضحة معروفة ؟

ولقد ذكرت لك في دروس (تاريخ الأدب) أن هذه النهضة الحديثة تشبه اختها زمن الدولة العباسية في اعتماد كل منهما على الثقافة الأجنبية في أغلب أمورهما تلك أفادت من فارس ويونان وغيرهما وهذه أفادت من فرنسا وإنجلترا وسواهما إلا أن المقومات العربية في الحال الأولى كانت قوية فاختضعت العلوم والآداب الأجنبية لسلطانها وحلت محلها في أوطانها وأوشكت أن تقضى عليها ولكن الحضارة الغربية في الحال الثانية هجمت بقوة على البلاد العربية في شيخوختها وهرمها فقامت هذه تتعثر وتدفع عن نفسها شر هذا السبل وتنتفع بخبره بمحاولة إحياء مقوماتها الأولى وتجسيدها بما يناسبها من ثمرات تلك الحضارة الحديثة فأخذت في أسباب ذلك ولا تزال تعمل على رغم طغيان الحياة الفرنسية علينا

واتجاهنا في كل شيء اليها حتى فتحت بلادنا فتحاً أدبيا فوق الفتح السياسي والاقتصادي ومهما يكن من شيء فلن يفوتنا ملاحظته تنقل أسباب الحضارة بين الشرق والغرب من أقدم عصور التاريخ الى وقتنا الحالى . فلقد نشأت في اليونان قديماً ثم نقلت الى العرب أيام الدولة العباسية والاندلسية ، ولما كانت الحرب الصليبية وفتح القسطنطينية وصلة الفرنجة بهرب اسبانيا ومسلميها تحولات تلك الوسائل العلمية والأدبية الى أوربا عقب القرون الوسطى فساعدت كثيراً في نهضة الحديثة ولكنها استقرت الى اليوم قوية مزهرة وأخذت تعود الى الشرق في اسلوب علمي اختراعى جميل وجميل أيضاً ، وربما كانت الارشاليات المسيحية إلى بلاد الشام أول بارقة حياة الشرق الجديدة فصادت جهلاً شائئاً وانحلالاً خلقياً وفساداً في جميع الأحوال ، ولكنها أفادت بعض الشيء في نشر اللغة وآدابها وشيء من المعارف الغربية ، وقد تبعها وقارنها حملة نابليون التي أدت إلى إحضار المطبعة العربية إلى مصر وإنشاء الصحف والمدارس والمكتبات الهامة والعناية بالفنون الجميلة والبحث عن الآثار القديمة فتنبه الناس الى تلك الحياة العلمية الطريفة وتيقظ فيهم الشعور بحاجتهم إلى التهذيب الخلقى وإلى الرقى الفكرى العلمى ثم إلى الاستقلال الذى شغل عليهم هذا العهد الحديث ؛ فلما جاء محمد على باشا وجه عنايته الى التعليم العملى وحمل الناس عليه حملاً ، ولم يكن في مصر إلا الأزهر حيث تدرس العلوم اللغوية والدينية بذلك الأسلوب العتيق وإلا تلك « المكتاب » المنبثة في القرى حيث يحفظ القرآن وتدرس الكتابة والقراءة بطريق الرهبة الممقوتة وحول ذلك جهالة عمياء وخرافات ذائعة وشقاء مادي ؛ وضعف خالق حاول هؤلاء الولاة علاجه بالتربية والتعليم ، بدأ ذلك منذ محمد على ولكنه كان واضحاً أيام اسماعيل الذى عنى وسط الاضطراب السياسى باصلاح القضاء والادارة وشق الترع وبناء المصانع وتجميل المدن ومعاودة الكشف الجغرافى وارسال البعث وفتح المدارس المختلفة مما عاد بشيء من الهدوء والنور العقلى ، نذكر هنا عدا الأزهر مدرسة دار العلوم حيث كان يدرس الأستاذ الامام عقب تخرجه من الأزهر ويريد أن يتخذها مع الأزهر وسيلة لاصلاح المصريين والمسلمين وفى هذه الفترة كانت نهضة فكرية ترمى إلى الاصلاح العام بعد جمال الدين الأفغانى زعيمها الأول

فأخذ يبت في الناس الفكرة الدستورية ويحرك فيهم المحافظة الوطنية مستعينا في ذلك بتلاميذه (ولا سيما محمد عبده) فكان يأمرهم بالخطابة والكتابة في الصحف ويفتح لهم النوادي ويعقد بينهم المناظرات الفلسفية والأدبية حتى خافت الحكومة شره واضطرت له إلى مغادرة البلاد ولكنه أوجد روحاً فكرية استطال أهلها إلى هذا اليوم ، وكان منها نهضة سياسية كما أسبقنا وأخرى اجتماعية خاصة ينهض بها قاسم أمين وثلاثة دينية كانت أظهر مميزات الشيخ محمد عبده وكانت هي الغالبة على سواها لمكانة الدين في النفوس وحاجته إلى الترقية والتصفية مما علق به من الخرافات والأساطير الذائنة في ألسنة الناس وكتب الفقه والتفسير والحديث وزد على ذلك ما أصاب الأخلاق من ضعف بتوالي الظلم والجهالة وانتشار الأجانب في المدن والقرى يبيعون الخمر ويأكلون الربا محتمين بامتيازاتهم ودولهم لا يردعهم رادع

وبما زاد مشقات هؤلاء المصلحين ما حدثناك به قبلاً من ميسل المصريين إلى المحافظة والبقاء على القديم وخصوصاً فيما عس الدين والعادات الشعبية فاصطدم كل من قاسم أمين ومحمد عبده بمجماعات المحافظين الذين اتهموهما بالزيف ووقفوا لهما في كل طريق يذودونهما دون الغايات ولكنهما مضيا قدما مؤمنين بما يبغيان

ومنذ عصر اسماعيل وقيام الثورة العربية تظاهرت عوامل شتى على اقامه النهضة وإطراد سيرها فالمطبعة والصحف واتصال الشرق بالغرب وتعلم اللغات الأجنبية وانتشار التعليم والمدارس المختلفة والأندية وعناية الشعب بالتربية وتقدم الشؤون الاقتصادية والصحية . كذلك ظهرت أثناء الثورة وبمعداتها طبقات من الرجال النابهين في الشام ومصر تعاونوا في هذه البلاد على ترقية أمثال البارودي وعبد الله فكري والأفغاني وعلي مبارك والبستاني والمواحي ثم محمد عبده وقاسم أمين ومصطفى كامل وعبد الله نديم وحفني ناصف والشيخ علي يوسف واسماعيل صبري وغيرهم من المعاصرين الذين يخدمون النهضة في لونها الأخير المتأثر بالحضارة الغربية إلى حد بعيد ونشير هنا إلى تأثير الحياة الفرنسية ومظاهرها في النفوس الشرقية وما تبعته

فيها من غيرة وميل الى النشاط الفكري وإيمان بالحياة الدنيا والشغف بها . . .
ذلك لأن الأستاذ الامام أقام بفرنسة مدة ودرس اللغة الفرنسية واتصل بجماعة
من علمائها وفلاسفتها (أثناء نفيه) وكان متأثراً في حياته بما رأى هناك وأفاد
كما يلاحظ في المقالة الثانية

وجملة القول ان الشيخ محمد عبده عاش في عصر جهاد سياسي واجتماعي يتناول
الحياة الشرقية الاسلامية في دينها وقوميتها والشئون المصرية في سياستها وخلقتها
وممارفها ، وكان موقفه منها موقف المصالح المجدد ، وأهم الحوادث المتصلة بحياته
هي الثورة العربية وما سبقها ولحقها ، ثم الاصلاح الديني الاجتماعي ، وما استدعى
ذلك كله من آثار أدبية مفيدة .

حياته وولادته

تأثيرهما في نفسه ومظاهر ذلك في نثره

١ - أصله . - بحلة نهر قريبة من قرى مركز شبراخيت بمديرية البحيرة
شمالى القطر المصرى ، لا تمتاز عن سائر البلاد الريفية فى شىء حسى أو معنوى أو
علمى ، يعمل أهلها فى فلاح الأرض واستثمارها شأن المصريين الذين يبعدون عن
المدن الكبيرة ، وفى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى والتاسع عشر الميلادى
كان يقيم فى هذه القرية رجل يدعى عبده خير الدين رزقه الله بسطة فى الجسم
وقوة ، ومراعاة على الرماية والفروسية له من هيئته وكرمه ونجدته من المسكنة
والجاء فوق ما كان له من مال وثراء ، وكانت له زوجة تسمى السيدة (جنيته)
من حصة شيشير فى مركز (السنطة) بمديرية الغربية لا تقل عنه فى تلك الفضائل
إلا بقدار ما يفتقر رجل عن امرأة ، وقد تزوجها - فيما يقال - أثناء هجرته
مطارداً من بعض الحكام ويقول بعض النسابين إنها تنتمى إلى بنى عدى الذين
يصلون الى عمر بن الخطاب ، فهذان هما والدا الشيخ محمد عبده اللذان نالا من مجده
شرفاً كبيراً وذكر أخالداً لا أظنهما كانا يحملان بهما أيام دفعا به الى التعليم وكانت
الزراعة عمل هذا الوالد مع أبنائه الآخرين الذين أعقبهم من امرأة ثانية قبل هذه

تذكر منهم حموده عبده الذى لم ينه ذكره بعد . فيما نعتقد . إلا على ضوء شهرة أخيه الأستاذ الامام الذى بنى له مجدا ومكانة كسائر أفراد الأسرة ، وسترى بعد كيف ظهرت مواهب هذين الوالدين الجسمية والنفسية فى نجلهما محمد فسيان له من هيبته وسمو أخلاقه أكبر مساعد على ما نال من نجاح واحترام ، وعلم النفس يعرف للورثة قيمتها فى تنقل المواهب والصفات من الآباء الى الأبناء .

« ٢ » « أوليته .. فى سنة ١٢٦٦ هجرية و ١٨٤٥ ميلادية وأخبر حكم محمد على باشا ولد محمد عبده فى بلدة أبيه أو أمه على خلاف بين المؤرخين ، واسكنه على أية حال درج ونشأ فى محلة نصر لا يختلف فى هذا أحد ، والظاهر ان هذا الطفل كان أحب أجدال أبيه لوسامته أو مخايله المبكرة فلم يحمله على سلوك سبيل الفلاحة كأخوته ، بلى تره مدلا ، لاعبا ، لا يكرهانه على الذهاب الى « المكتب » ذلك الذى كان مبعثا الى أبناء القرى ولا يزال كذلك الى اليوم لعقم الأسلوب التعليمى وأخذ الأطفال بالرهبة والأذى ، فدرج من المهد تحت سماء مصر الصافية وشمسها الساطعة ، وهوائها الطلق ورزقها الوفور ، ينعم بصحة وبسطة فى الخلق ويتغذى من شيم أبويه وآله بما كان أساسا صالحا لمستقبله واستمر كذلك حتى أدرك العاشرة من عمره لم تعهده يد فقيه أو معلم إلا ما ارتسم فى نفسه من مظاهر الحياة الزراعية القروية الوادعة ، .. وهنا لم يكن بد من توجيهه الى إحدى الناحيتين ، الحقول يزرع ويفلح الأرض كأخوته وهذا ما كرهه جميعهم له ، « المكتب » ، للامام بالقراءة وحفظ القرآن الكريم وهذه كانت الوسيلة الفذة لراغى التعليم اذ ذاك ، فاحضر له والده فقيها خاصا لازمه حتى استظهر القرآن فى مدة قصيرة ، ثم أرسله الى الجامع الاحمدى (بطنطا) لتجويد القرآن فأتم ذلك باتقان وسرور ، وهنا تنتهى الحلقة الاولى من تعلمه ، وقد خرج منها يحسن القراءة والكتابة ويتلو القرآن حافظا مجيدا ، فلنذكر منذ الآن ما عسى أن يفيد كتاب الله فى اصلاحه الدينى والأدبى حين نراه فى المستقبل يحاول التحلل من عبث الكتاب وركيك الأساليب الى الكتابة العصرية ثم يتأثر فى حياته الدينية بالقرآن ونصوصه يجد فيها ما لم يجد المفسرون من معان علمية طريفة ، ومن مصدر تشريع لانبياية الأيام وما تستحدثه من أحوال

« ٣ » في طريقه الى المعاهد - وفي سنة ١٢٨١ هجرية وقد بلغ من العمر خمس عشرة سنة حمله آله على طلب العلم في الجامع الاحمدى بطنطا انما لتلك الخطة التعليمية في ذلك العهد ، والجامع الاحمدى ماهر الافرع من الازهر يذهب اليه الطلاب الراغبون في تحصيل العلوم الدينية واللغوية وتمتاز الدراسة اذ ذاك في تلك المعاهد بدقة البحث وعمقه وكثرة الجدل والمناقشة ولكن العيب الكبير أن تلك الدراسات تكون في الغالب لفظية أكثر منها موضوعية فلا يستفيد منها الطالب معارف ومساائل تتناسب مع الوقت والجهد اللذين ينفقان في سبيلها ، كذلك كانت طرق التعليم عقيمة تأخذ الطالب فجأة بما لا يعرف من المصطلحات والرموز وقواعد الاعراب فيلحق في ذلك عناء قد يضطره الى استظهار المسائل دون فقه أو تحقيق والشيوخ يجدون في صمغ طرقيهم وكتبهم بلون من الجلال الكاذب ثم يجبرون الطلاب على تأثرهم معترزين بمكانة موروثه لا يعنيههم وافقت العصر أم لا : فلا عجب بعد هذا اذا انصرف هذا الطالب عن هذه السبيل وحاول أن يكون فلاحا ذاخوته فقصده الى قريته بعد سنة ونصف تقريبا وتزوج أولى زوجته عازما على البقاء بين أهله يعمل عملهم اذ ليست هناك فائدة في اضاءة عمره فيما لا يجدى ، ولكن والده حمله ثانية على العودة الى الجامع الاحمدى لطلب العلم كأنه تفرس فيه الذئب والاستعداد للنبوغ فاركبه فرسا مع رجل يوصله الى محطة (ايتاي البارود) حيث يركب القطار الى طنطا ولكنه فر منه وقت الظهيرة في منتصف الطريق وأخذ يعدو بفرسه الى قرية تسمى (كنيسة أورين) بمدينة البحيرة أيضا وكأنما فر الى حيث يفتح لنفسه باب العلم الصحيح السهل كما حدث عن نفسه وذلك انه كان في تلك القرية رجل عالم صوفي مهمته الزراعة يدعى (الشيخ درويش) وهو خال أبيه كان قد ساح في الأرض ووصل الى طرابلس الغرب فأخذ العلم والطريقة الصوفية عن (السيد محمد المادني) وعنى بتفسير القرآن وحفظ كتباً في الحديث أشهرهما (موطأ) الامام مالك

ونقل لك هنا ما كتبه حسن باشا عاصم في هذه النقطة عند تأيينه فلما نزل الفقيه ضيفا في دار الشيخ درويش رحب به وطفه أن يقرأ له جملا من كتاب

خطى جاء به فأبى عليه فما زال يلح عليه مع التلطف به حتى قرأ أسطر فلما قرأها اندفع الشيخ يفسرها له ثم عاد اليه يكلفه بالقراءة فيقرأ فيفسر له ثم يتركه يلهو ويلعب مع شباب القرية فما جاء عليه اليوم الخامس الا وقد عشق القراءة ومقت اللعب والاهو وهذا دليل على أن تركه العلم أولاً كان لعدم الفهم لا لضعف الاستعداد . . . لم يكن ذلك مرغباً له في العلم والقراءة فقط بل كان مرغبا له في العمل بالعلم وتربية نفسه وتهذيبها به ، فقد كان ذلك الكتاب مجموعة رسائل كان السيد محمد المدني أرسلها الى بعض مريديه يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويرغبهم في تصفية النفس وتحليتها بالكمال ، فسأل الفقيه - محمد عبده - الشيخ درويشاً عن (طريقته) مظهراً له الرغبة في سلوكها معهم فقال طريقتنا الاسلام قال الفقيه وما هو (وردكم) قال هو القرآن مع الفهم ، والذكر مع الحضور ثم فرض عليه أن يقرأ كل يوم أربعة أرباع مطالباً نفسه بفهمها وكان هو يفهمه ما لم يفهم ، فأخذ الفقيه ذلك بحمد واجتهاد وانقطع للقراءة والذكر وبعد أسبوعين ذهب إلى طنطا لطلب العلم ففتح عليه حتى كان الطلاب يحتمعون اليه ليطلع لهم الدروس التي يحضرونها وبعد ذلك انتقل الى (الأزهر) نقول أن أسلوب الشيخ درويش في تربيته هو الأسلوب المقيدم المتفق مع طبائع الأطفال لجمعه بين اللهو والتعليم واعتماده على الاشتراك مع الطالب في المناقشة والفهم ، ثم نسجل آثارها في نفس محمد عبده من عنايته بالتصوف وعلومه أولاً وب تفسير القرآن تفسيراً آخرأ معقولاً ثانياً ثم ما يلابس هذين من كتب الحكمة والمنطق والعلوم الحديثة ثالثاً

« ٤ » في الأزهر — وهذا الجامع انشأه الفاطميون منسداً فتحوا مصر وأسسوا القاهرة ليكون مدرسه لتعاليم الشيعة مع دور الحكمة التي قامت لهذا الغرض فاستمر مدة دولتهم تغلب عليه هذه الصبغة الدينية والسياسية معاً ولما أتى الأيوبيون إلى مصر حاربوا هذا المذهب وأقاموا مكانه مذهب السنيين الذي ظل فيه للآن . وأهم العلوم التي عني بها الأزهر في تاريخه انما هي علوم الدين واللغة لفهم القرآن والسنة ودراسة العلوم الاسلامية ، وقد دخلت فيه الرياضيات والنجوم وبعض العلوم الكونية تحيياً ضئيلة مع تلك ومع ما ناله من

اليسر والعسر في عصور التاريخ فقد بقي محتفظاً بكثير من كتب الادب والدين حتى اذا كان محمد علي باشا فاتخذ منه رجال البعث الى أوربة فساعدوه في بناء دولته الناشئة أى مساعدة واستمر مدرسة العلم الدينى واللغوى حتى نشأ التعليم المدينى انبه وكانت مدرسة دار العلوم تتوسط بين هذين النوعين من التربية يلجعها بين العلوم العربية والدينية وبين العلوم الحديثة . و آخر الامر مال العلماء الى انهاض العلوم الحديثة فيه بجانب أختها وكان محمد عبده أظهر رجال هذا الاصلاح كما نحددك بعد قليل فى سنة ١٢٨٢ هـ انتقل محمد عبده الى الازهر فلم يكن رأيه فيه أول الامر خيراً من رأيه فى الجامع الاحمدى من حيث أساليب التدريس وموضوعاته ووجود الشيوخ على ذلك التراث القديم يتوارثون تلاوته دون تنبه الى وجوب تنقيته من الأساطير والاختطأ العلمية ثم التصرف فيه بما يحبه الى الطلاب ويسهله عليهم ويجعله متناسباً مع روح العصر الحديث . فلم يكن من محمد عبده إلا ان يهت من ذلك الجهد واستمر مدة يعالج هذا الدرس ولا يكاد يسوغه . ان الذى كان يعوقنى عن تفهم الشروح والمتون ثلاثة أمور الاول رغبتى فى ان أكون مثل أخوتى فلاحة وعدم وجود الوسائل التى ترغبنى فى العلم والثانى اختلال نظام التدريس بحيث كنت أسمع الشيخ وهو يدرس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية والثالث ما اتفق عليه الطلبة من مضايقة معلميهم بالاغذية الضارة بما يكون منه اعتلال الجسم والفكر معاً ، و آخر الامر عكف على نفسه يعالجها بالاناة والصبر تنفيذاً لرغبتى أبى والشيخ درويش الذى عنى بمراقبته وحثه على التعليم كما صادفه فلانت له المسائل ومهدت السبيل وأخذ يتردد على حلقات التدريس يتعلم النحو والصرف والبلاغة والتفسير والحديث وفقه الامام مالك صاحب (الموطأ) ثم تحول الى فقه الامام أبى حنيفة صاحب المذهب الرسمى للحكومة المصرية الآن ، واستمر نحو أربع سنين ألم فيها بالعلوم الازهرية ، وفهم روح الازهر وما يعالجه من دراسات كل هذا والشيخ درويش يرغبه فى تعلم العلوم الاخرى غير الازهرية كالحساب والهندسة والمنطق والتاريخ وغيرها ، وكان فى الازهر اذ ذاك شيخ معنى بالمنطق والفلسفة الاسلامية هو الشيخ حسن الطويل فلزمه محمد عبده يكمل نفسه بما عنده ويكون خير تلاميذه فهما وتعبيراً ، وربما كان هذا الشيخ أظهر الشيوخ الازهرين

أثرا في نفس هذا الطالب كما ان الشيخ عبد الكريم سلمان أظهرهم له صداقة ومجونة فيما بعد ، ولم ينس محمد عبده تلك الطريقة الصوفية فبقى متصلا بها في الازهر يميل الى العزلة أول أمره فلم يكن يكلم أحداً الا لضرورة ثم يعرض مسائل الصوفية على الشيخ درويش مدة المعلقة الازهرية وكان هذا ينتظره في قريته (محلة نصر) يدارسه القرآن والعلم ويحاسبه عما حصل طول العام

وفي سنة ١٢٨٨ هـ : ١٨٧١ م حضر الى مصر فيلسوف الشرق والاسلام الاستاذ الحليم السيد جمال الدين الافغانى أستاذ المترجم الفذ وصاحب اليد في طبعه بطابعه الناطق ذكاء وحكمة ، وحرية وجرأة ، وتضحية وبلاغة .
ينتسب جمال الدين الى الحسين بن علي بن أبي طالب وقد نشأ في بلاد الافغان نشأة علمية نادرة فآلم في بلاده وفي الهند بالعلوم اللغوية والاسلامية والتاريخ والادب وعلوم الطبيعة والرياضة والطب والتشريح وغيرها وتقلب في عدة مناصب ببلاده حتى وصل الى درجة الوزير الاول ، ولكن الشئون السياسية اضطرتة الى هجرة بلاده فذهب الى الهند وكانت ثائرة في وجهه انجلترا فأمرت به هذه بمغادرتها خوف اتصاله بالثائرين وحملته على احدى سفنها الى السويس فجاء مصر ومكث بها أربعين يوما تردد فيها على الازهر وخالط كثيراً من طلبة العلم السوريين وألقى عليهم محاضرات في مسكنه ثم قصد الى بلاد الحجاز للحج وتعرف تلك البلاد وقصد الاستانة سنة ١٨٧٠ م وكانت شهرته قد سبقته الى هناك فجمعت حوله قلوب الأمراء والوزراء ورجال العلم والأدب حتى عين بعد قليل عضواً في مجلس المعارف وأستاذاً في الجامعة ، فابتدأ ينشر تعاليمه التي تتخلص في التوفيق بين الاسلام والمدنية والرجوع الى المصادر الأولى للتشريع الاسلامي وشرحها شرحاً معقولاً خالياً من الخرافات والأساطير ثم الميل الى تحرير الفكر والعناية بالعلوم الفلسفية واصلاح الأساليب العربية والسمير على حياة الشرق حياة حرة دستورية ناهضة ، فلم ترق تلك الاغراض في نظر شيخ الاسلام بتركيا (حسن أفندى فهمى) حتى أثار عليه الخواطر واضطره الى ترك الاستانة فنزل مصر سنة ١٨٧١ م أيام اسماعيل باشا فغرفت ، فرحب به رياض

باشا وشجعه كاشجع تلميذه بعد (محمد عبده) وظانت مدة اقامته مصر سلسلة أزمنة سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية بسبب اسراف اسماعيل وضعف توفيق وابتداء من التصادم بين القديم والحديث وبسبب الدسائس السياسية وتدخل الاجانب ، فكان جمال الدين من رجال هذه الساعة النف حول الناشئون وطلبة العلم يدرس لهم في بيته الأدب والمنطق والتوحيد والفلسفة والتصوف وأصول الفقه والفلك بأسلوب فكه طريف وكان محمد عبده الزم هؤلاء "طلبة لغواحرصهم على الافادة منه وأحبهم اليه ، فربى السيد الافغانى طبقة من المتعلمين حملوا لواء النهضة الادبية والسياسية والعقلية الى وقتنا هذا وكان يحملهم على الكتابة في الصحف والخطابة في المنتديات متناولين السياسة والاجتماع والآداب حتى خافت الحكومة خطره فعمله توفيق على ترك مصر لان سياسته أغضبت انجليزته وفلسفته أحفظت عليه الجامدين من العلماء الازهريين ، فقصده الهند فاوروبا حيث وافاه تلميذه البار محمد عبده .. ولتقف هنا حتى نصل بالترجم الى باريس .. وكان جمال الدين لحدة طبعه يرى أن خير وسيلة للاصلاح انما هي الحكومة تفرضه فرضا على الشعوب ليكون الزم واسرع ولكن محمد عبده كان يرى التربية واعداد الامة للاصلاح خير وسيلة قوية ثابتة ، وعندنا أن الرأي الثاني اضوب هناك فرق كبير بين فرض الامور فرضاً على الامة دون استعداد لها ، وبين اعداد وتنقيتها حتى تشعر بحاجتها الى الاصلاح وتطلبه لنفسها في شغف واشتياق ، وأخرى بالاسم في الحالة الاولى أن تنتفض وتنور وتهدم في طرفة عين ما بينته الحكومة على غير أساس كما حدث في الشرق هذه الايام

كان محمد عبده طالبا في الأزهر حين قدوم استاده هذا ففان به وازمه وأخذ عنه كل مبادئه واغراضه وتلقى عنه المعارف وعرف كل منهما بصاحبه فلا يذكر احدهما حتى يذكر الآخر ، وقد صادفت تعاليم الافغانى من نفس هذا الطالب ارضا خصيبة مستعدة فأثمرت انما اثمار فأخذ وهو طالب يقرأ دروسا في الأزهر على أسلوب استاده موزعها التوحيد والمنطق والحكمة والفلسفة يؤمها الجم الغفير فيرون كنبأ جديدة وأسلوباً جديداً فيه بلاغة وحرية فكر وهنا ظهر الاصطدام

بين المذهبين مذهب الأزهر القديم يمثلته الشيخ عليش ، ومذهب محمد عبده واستاذه يحجر به هذا الطالب موقفاً قادراً يهر به الناس حتى ظهرت له مؤلفات ورسائل ومقالات صحفية لفتت اليه الانظار ولاقت معاضدة وتشجيعاً من كل الطبقات النابهة ولاسيما خارج الأزهر أما المؤلفات فلست بحاجة إلى اخبارك أنها في التصوف والتوحيد ومنوجين بالحكمة والفلسفة والمنطق ، كرسالة الواردات وحاشيته على العقائد في التوحيد وتلخيص محاضرات أستاذه في التريية ورجالها والصناعة وحث الناس عليها وتجد قسماً من ذلك أول الجزء الثاني من تاريخه تلس فيه الأسلوب العلي الفلسفي الذي يعيد اليك أسلوب ابن سينا في اشاراته والغزالي في الاحياء وأدب الدنيا والدين الماوردي وكتب المنطق والحكمة في شيء من التمهيد والتسهيل

وأما المقالات فقد كتبنا في صحيفة الأهرام التي رحبت به كل ترحيب وموضوعها ديني وأدبي واجتماعي ودعوة إلى ادخال العلوم العصرية بالأزهر وغير ذلك ، من ذلك مابدأ به أولى مقالاته بقرظ الأهرام « انه لما نظر لدى كل قاص ودان واشتهر بين بني نوع الانسان أن مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك وكعبة يؤمها كل سالك وناسك إذ كانت قد اختصت بتربية العلوم وبحث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ... الخ ، وماكتبه تحت عنوان الكتابة والقلم « ان مما انبسطت به أيدي الضرورات وأنتجته مقدمات الحاجات انشاء لسان القلم نائباً عن المتكلم فيما يتكلم وذلك أنه لما اقتضى النظام الآلهي أن يخلق الانسان محتاجاً في أن يقوم بدنه مدة مامع حد ما من الراحة إلى أن يتخذ مما خلق الله له في الارض ما لم يكن حاصلاً وان يكون منه ما لم يكن ذاتاً . . الخ ، وماكتبه في العلوم الكلامية والعلوم العصرية وكلنا تناسينا عهد جاهلية العرب وماكان من مقتضيات الجهالة في تلك الحقب ومننا أنفسنا بأننا صرنا في نشأة أخرى وتقدمنا الى الكمال بعد أن كنا الى القهقري واستصبحنا بهباح الآمال في ليل الضلالة والاختلال وهمت أفكارنا بتحصيل ما سبقنا اليه غيرنا تذكرنا حوادث الأيام بأننا لازلنا في أول نقطة من ذلك الزمن الأول بل كان ذلك على تنزل منه الى أسفل وتنشئ « ما لنا عن تقدم أهالي أوطاننا ، فن أعجب ما رأينا »

في هذه الأيام أن بعض طلبة العلم الكرام الذين قد بذلوا جهدهم في التحصيل وخلعوا ثياب أوزار البطالة والتهطيل واقتدوا براحتهم لتنوير بصيرتهم قد تحركت الى المعالي همته ودعته الى التفنن غيرته فأخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية التي كان قد صنفها بعض افاضل الملة الاسلامية لما انه قد علم كما هو الواقع أن العلوم المنطقية انما وضعت لتقويم البراهين وتمييز الافكار غثها من السمين . . الخ ، وقوله تحت عنوان المدير الانساني والمدير العقلي الروحاني « أنتم يامعشر الشرقيين أبناء وطن واحد متشاركون في المنافع والمضار وسائر المقاصد لايس أحدكم خيراً إلا نال الآخر منه مثل مانال صاحبه ولا توجه اليه خيراً إلا وهو الى الآخر يتعاقبه فما لهممكم تضامات وخطباتكم تمثلت :

فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

ولم تخاطبوا عدوكم من صميم فؤادكم

محا السيف أسطار البلاغة وانحى « اليك ليوت الغاب من كل جانب . . . الخ من هذه الفقرات نستطيع أن نشخص اسلوب محمد عبده في هذا الطور الذي يمتاز بالسجع الشائع في هذه الفترة وكان عبد الله فكري من الظاهرين به ، وكذلك تكاثف الاسلوب العلمي المنطقي لتأثره بتلك الكتب التي درسها ثم ظهور كثير من المصطلحات العلمية في كلامه مثل المفهوم والمنطوق ، والخصوص والعموم وغيرها ومعنى هذا أن اسلوبه اسلوب فلسفي منطقي يسلك مسالك المناطق في الجدول والبرهان متأثراً في ذلك بحياته الدراسية السالفة ، وكان اذ ذلك في العقد الثالث من عمره

فلما بلغ الثامنة والعشرين تقدم لامتحان (العالمية) فنالها سنة ١٢٩٤ هـ بعد تلمسك العلماء وتبرمهم به لعلمهم نزعة التجديدية وتأثره بجمال الدين ، وكلاهما نادر في وجه الجمود داع الى حرية الفكر والاعتراف (بال شخصية) وعدم الفناء في السابقين وان كانوا مخطئين وهنا ينتهي طور طلبه العلم بالازهر الشريف « هـ » أعماله الاولى — لما نال محمد عبده ، درجة العالمية « من الازهر الشريف وكان ممتاز المواهب العقلية واللسانية عهد اليه دراسة التاريخ بمدرسة « دار العلوم »

مع دراسة اللغة العربية في مدرسة الألسن ، وكنا المدرستين من منشآت العصر الحديث تعنى الثانية بدراسة اللغات الاجنبية ليكون خريجوها صلة مصر بغيرها سياسياً وعلمياً وحضارة ، والاولى انما اعدت لتوسط بين التعليم الأزهرى والتعليم المذنب الحديث وكان يحبها الاستاذ الامام ويبغى من ورائها من الاصلاح ما يحجز عنه الأزهر وأهلوه حتى إنه لما أسند اليه القضاء بعد نفيه أعرض عنه طالباً التدريس في هذه المدرسة ، قائلاً انما خلقت للتدريس ، والحق أن هذه المدرسة أيامها الاولى كانت أداة اصلاح أدنى ودينى ومدنى نافع فقد نقلت الامة من عصر الموت والجور واعدتها لتلقى أسباب الحضارة الحديثة ولا سيما ما يلبس اللغة وآدابها ، وكان الاستاذ يعنى في دار العلوم بدراسة « مقدمة ابن خلدون » التى صدر بها تاريخه المشهور ، وتمتاز هذه المقدمة بين ما كتب في عصرها بأسلوبها المرسل حينما كان الكتاب مفتونين بالسجع والبديعيات الى درجة أضاعة المعنى لاجل البهرج اللفظى ، كما تمتاز بمباحثها العمرانية والاجتماعية والتاريخية مع ميل شديد الى النقض والتحجيص حتى اعتبر ابن خلدون واضع علم الاجتماع والعمران بما خطه في هذه المقدمة من الفصول وعلمها اعتمد كثير من كتاب النهضة الحديثة واتخذوها أساس ثقافتهم موضوعاً واسلوباً ، فكان استاذنا يسلك في درسها مسلك الامام المجتهد في هذين العلمين حتى يعد طلبته بيننا من النابهين بالنسبة اسواهم .

استمر الاستاذ يدرس في هذه المدرسة وهو على صلة وثيقة باستاذة جمال الدين الافغانى حتى اذا اضطر جمال الدين الى مغادرة البلاد كما قدمنا حملت الحكومة بمحمداً عبده على مغادرة وظيفته الى قرينته لا يرحمها خوف تأثيره في البيئات الناهضة في وجه السياسة الخرقاء اذ ذاك فلم يكن من الشيوخ الا أن ربح في (محلة نصر) يرقب الحوادث عن كذب سنة ١٢٩٦ للهجرة ، أول حكومة توفيق الضعيفة ووزارة شريف الذى أراد تشجيع « مجلس شورى النواب » فأبى عليه الخديو طوعاً لمندوبي فرنسا وانجلترا كما شرح ذلك محمد عبده في « مذكراته » ولما استقالت وزارة شريف وأعقبتها وزارة رياض وكان هذا ميالاً الى محمد عبده ونهضته الفكرية سه ، في اصدار العقو عنه سنة ١٢٩٧ هـ ليكون « محرر الجريدة الرسمية وهى » الوقائع المصرية ، التى انشئت منذ عهد محمد على فأتخذها الاستاذ وسيلة

اصلاح حكومى وشعبى ممأ ، ونذكر هنا ما كان لدراسة الاستاذ فى دار العلوم وما قرأ من كتب أدبية واجتماعية من آثار فى اسلوبه الكتابى وفى الموضوعات التى عالجها فى هذا العهد وأهمها ما كتب فى الصحيفة الرسمية (٩٧ - ٩٨ هـ) وكانت صحف أخرى تصدر فى القاهرة كالأهرام وروضة المدارس ونزهة الافكار والمؤيد ووادى النيل القديمة وغيرها ، ولما ولى تحرير الوقائع رغب اليه رياض فى وضع قانون للمطبوعات ففعل ، وكان من أحكام ذلك القانون أنه يجب على جميع مصالح الحكومة أخبار قلم المطبوعات بأعمالها وأحكامها ومشروعاتها وان لرئيس التحرير حق انتقاد ما يراه معوجاً منها كما أن له حق مراقبة الصحف الأخرى التى ألزمها نشر مقالات فى التربية والآداب والتدبير فصار الأستاذ بذلك مسيطراً على عمال الحكومة ، ومربياً للأمة ينقد الحكومة فى صحيفة الحكومة فسلك بالوقائع المصرية مسلسلاً حديثاً واتخذها أداة اصلاح اجتماعى وسياسى وادى ينشر فيها مقالاته التى كان يود اذاعتها فى المدارس أو الكتب أو الصحف الأخرى من ذلك ما كتبه تحت عنوان احترام قوانين الحكومة « انما تسعد البلاد ويستقيم حالها اذا ارتفع فيها شأن القانون وعلا قدره واحترمه الحاكمون قبل المحكومين واستعملوا غاية الدقة فى فهم فصوله وحدوده والوقوف على حقائق مغزاه ، وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئية وكلية على منطوقه الحقيقى ومفهومه عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية ويسرى فيها روح السعادة ... وليس يكفى فى راحة العباد وانتظام المملكة أن توضع القوانين مادية لـكليات الأمور وجزئياتها ثم تهمل من النظر وتطرح عن الفكر ويستمر كل ذى عمل فى عمله يتبع فيه رأى نفسه الخ » وما كتبه تحت عنوان ما أكثر القول وما أقل العمل « ان من أخس الصفات وأدناها أن يقول الانسان ما لا يفعل وان يدل غيره على ما ضل هو عنه وأن يعيب على الناس ما لا يعيبه هو على نفسه وذلك أن من كانت هذه صفاته فهو جاهل من وجهه ومعترف بنقصه من وجه آخر وخبيث المقصد ودنى الهمة من الوجه الثالث ... الخ » وهذا بما كتبه تحت عنوان خطأ العقلاء بما يمس أولى الأمر « تولى أمر هذه البلاد المصرية أناس فى أزمنة مختلفة تظاهر كل منهم بأنه يريد

تقدمها وتقلها من حالة الحمجية (على ما يزعم) الى حالة التمدن التي عليها أبناء الأمم المتقدمة وجماعوا الوسيلة الى ذلك أن تنقل عادات أولئك الأمم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم الى هذه البلاد وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم وأخذنا الآن بأفكارهم اليومية وتشبهنا بهم في الأطوار كاف في أن نكون مثلهم وان استلما لتلك العادات وتلقينا لتلك الافكار أمر غير عسير...، ومما كتبه بعنوان الشورى والقانون « ان القانون الصادر عن رأى العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس الا ، وبيانه أن الاجتماع بين أمة من الناس في مبدأ أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التي تلم بالانسان فتلجئه الى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها فاذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين وانقطع كل منهم في الاسباب التي توصله الى لوازم المعيشة نزع فيهم حب المسابقة في كل ما يتنافس فيه كل حى وتولد من ذلك شدة الطمع والشهه وجر الأمر الى الحسد والبغض وان استعداد الناس لان يتهجوا المنهج الشورى غير متوقف على أن يكونوا متدربين في البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهل... الخ ،

فترى من هذه الفقرات وغيرها ان الاستاذ في هذا الطور العمل قد امتاز معنى وموضوعا واسلوبا ، فترك السجع الى الارسال وتحلل من المصطلحات العلمية والتعابير المنطقية الى حد كبير ، وسلك بأسلوبه سبيلا أدبيا اجتماعيا لا تظهر فيه أساليب القدماء كثيرا ، واما موضوعاته فغلقت عليها النواحي الاجتماعية والسياسية والخلقية والاقتصادية ثم الدينية أيضا وتبع ذلك تجديد معانيه بوحى تلك الموضوعات وتجارب الحياة

ولاشك أن ذلك يعود الى اتصاله بالكتب الادبية مدرسا وقارئا فعلا أسلوبه ثم اتصاله بحياة الشعب وتعليمه وسياسة الحكومة وأعمالها ففتحت أمامه مناحى القول والكتابة فصارت آثاره تتناول الحياة من جميع جهاتها متأثرا في كل ذلك بغيرة دينية وطنية يستشهد كثيرا بآى القرآن والحديث وحكم السابقين وأشعارهم ، يحرص على هذا الاصلاح والسيرة الى الامام في دائرة سلبية قانونية حتى ذات الثورة العراقية

« ٦ » الثورة العرابية -- كان الاستاذ في منتصف الحلقة الرابعة من عمره حين بدت مقدمات الثورة العرابية ، وأساسها الاصلى إنما هو التدخل الأجنبي الذى أفضى الى انقاص الجيش والى الامتيازات وشل الحياة النيابية وكثره الضرائب والعصب بالحياة السياسية والاجتماعية فى مصر ومعارضة أمانى البلاد التى ولدتها النهضة الفكرية الحديثة على يد جمال الدين وتلاميذه وأشهرهم محمد عبده الذى يعد من أنصار فكرة الإصلاح البطي. الثابت وأعداد الامة لقبول المدنية الحديثة فآخذ يصلح الماديات ويحارب الخرافات وينقى الدين من الاساطير « وبهذا وماسبقه تنبهت الافكار وبدأت الحياة الاجتماعية تدب فى جسم أمة مزقتها الظلم وانبعثت النفوس تطلب ما شرفت به من حاجاتها فتألفت بعض الجمعيات الخيرية الإسلامية وقبطية لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية واولادهم بالتربية ولم يكن يسمع بمثل ذلك فى مصر من قبل . . . ولكن حال دون بلوغ تلك الامانى أمور منها منشأه رياض باشا نفسه وبعض النظار ، ومنها ماله علاقة بالجناح الحديوى ، ومنها ماسبقه امتداد السلاطة الأجنبية الجديدة ومنها نهوض الساخطين لاستعمال ما وجدوا فى ذلك من الوسائل لاثارة الفتن وقلب وزارة رياض باشا « فلما قوى النفوذ الأجنبي وتسرب الخلل الى الجيش لاختلاف عناصره وعدم المساواة بينها وشلت الحياة النيابية ظهر عرابى وانصاره وطلبوا من توفيق باشا وضع حد لهذه الآلا عيب ، ولكن المسألة كانت متأثرة بالنفوذ الانجليزى الفرنسى كثيراً بحجة الديون المصرية ومراقبتهما الثنائية « ثم ابعاد مسافة الخلف بين العرابيين والحديوى نفسه وضمانهما حمايته لأنه مثال السلاطة الشرعية الوحيدة ، فطلبت الدولتان ابعاد عرابى ولكنه تار وجمع الجيوش للقاء الاساطيل والجيوش الفرنسية والانجليزية وكان من ذلك حرب انتهت بالاحتلال الانجليزى كما هو معروف وكان موقف محمد عبده من العرابيين موقف المستشار الناصح لهم بالاعتدال وعدم الالتجاء الى العنف أمام دولتين قويتين ولكن الثورة جمحت بأصحابها لأسباب شتى الى تلك الغاية المشؤومة ولم ينجح محمد عبده فى حمل أصحابه على الاعتدال والانهاء وآخر الامر حوكم أنصار الثورة وابعدهم منهم كثير واتهم هذا الشيخ بالتآب وحكم عليه بالنفى ثلاث سنين وثلاثة اشهر فى حين انه لقي من العرابيين العنف فى دعوتهم

الى الاعتدال حتى هددوه بالقتل صبراً ، وكان الاستاذ يرى في هذا الثورة قضاء على ذلك الاصلاح الذى حارله وأخذ يقيم اصوله ، وان كان على أية حال عدوا للاحتلال والنفوذ الأجنبي .

أودع محمد عبده السجن بالقاهرة تمهيداً لمحاكمته فكتب الى أحد أصحابه رسالة منها هذه الفقرات :

« تقلدنى الليالى وهى مديرة تأتني صارم فى كنف منمزم

هذه حالتى ، اشتد ظلام الفن حتى تجسم بل تتجسر ، فأخذت صخوره من مركز الأرض الى المحيط الاعلى واعترضت ما بين المشرق والمغرب وامتدت الى القطبين فاستحجرت فى طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية فاصبحت قلوب الثقلين بالحجارة أو أشد قسوة فتبارك الله أقدر الخالقين ، ... رأيت نفسى اليوم فى مهمه لا يأتى البصر على أطرافه ، فى ليلة داجية غطى فيها وجه السماء بغمام سوء فتكأفركما لا أرى ركاما انسانا ولا اسمع ناطقا ولا أتوهم مجييا اسمع ذئابا تعوى وسباعا تزار وكلابا تنبح ، ظمأ يطلب فريسة واحدة هى ذات الكاتب . . . ذهب ذوو السلطة فى بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب اصداف من الشبه ومقذوفات من التهم وسواقط من اللحم ليموهوها بمياه السفسطة ويغشوها بأغشية من معادن القوة ليرزوها فى معرض السطوة ويغشوا بها عين الناظرين . . . قدم فلان وفلان تقريرين جملا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنق ولم يترك شيئا من التخريف الا قلاه وذكر اسماءكم فى امور أتم جميعاً أبعد الناس عنها . . . آه ، ما أطيب هذا القلب الذى يملئ هذه الاحرف ، ما أشد حفظه للولاء ، ما أغیره على حقوق الاولياء ، ما أثبتته على الوفاء . . . هذا القلب الذى يؤلمونه بالكاذبهم هو الذى سرقلوبهم بالترقية وملاؤها فراحا بالتقدم ، ترى من هذه الكلمات فداحة الخطب وخيانة الصعب ، والاسف على هذه الامة تتردى فى هاويات النفاق والكاذب وان لم يبرأ الاستاذ فى أسلوبه من التكلف اللفظى ، وتراحم معانيه التمثيلية ومصطلحاته العلمية .

٧٠ ، فى المنفى - كان عهد المنفى للاستاذ محمد عبده حلقة جديدة حقاً ، متنوعة

الوسائل ، خصيصة النتائج ، حمة الفوائد ، غادر بها وطنه الخاص ، الى وطنه العام

ولم يعد متأثراً بالروح المصرية أو الشرقية فقط ، بل اتصل بحياة غربية قريبة في
فرنسة حيث التقى ثانية باستاذة السيد جمال الدين الافغانى الذى كان إبان الشرقة
العراقية في الهند فابقته النجاسة هناك مراقباً لئلا يتصل بالعراقيين حتى اذا انتهت
هذه الثورة سمحت له بالتوجه كيف شاء فقصده الى لندن وكتب وهو مارة ببرسعيد
الى محمد عبده يخبره بذهابه الى إنجلترا ويطلب اليه الرد بعنوان جريدة الشرق
والغرب أو «المستر بلات» صديق السيد الافغانى ، فكث هذا في لندن مدة ثم
اتخذ الى باريس سنة ١٨٨٣م وفي آخر هذه السنة وافاه محمد عبده هناك حيث
اتهدا على اللقاء .

غادر محمد عبده مصر الى سوريا (بيروت) واستقر هناك نحو سنة ، ولم يكـد
يصل اليها حتى وافته رسائل شتى من التخلصين له يذكرونه بالصبر والاحتمال حتى
تنقشع هذه المحنة فكان يرد عليهم شاكرآ لهم ولمن أكرموا وقادته من السوريين
وغيرهم ، وقد كتب الى السيد جمال الدين عقب هذا النى رسالة منها «أوتيت من
لذلك حكمة أقلب بها القلوب ، واعقل العقول ، وأذل بها شواخي المصاعب
وانصرف بها في خواطر النفوس ومنحت من لذلك عزمة اتمعن بها الثواب
واصدع بها شم المشاكل ، وأثبت بها في الحق حتى يرضى الحق ... وما حكم به
سيدى على المصريين من سلب الوفاء فذلك قد تتصافر عليه الأدلة وتشهد لك ولنا
به الحوادث غير أننا لسنا أولئك فقد اخرجتنا عن طباعنا وحولتنا نبتاً غريباً
لا يغتذى بغذاء تلك الأرض ولا ينمو بهوائها ، وإنما يتضر حيث يتبع له القدر من
مثل عناصره ما يقوى به قوامه ويزهو زهره ويحلو ثمرة والاذبل ومات واستوصات
جذوره ونفى الى خارج البلاد» وكتب كذلك من بيروت جواباً عن كتاب لصديق
«لك في قلوبنا من الود ما يدكيه سناؤك ، وفي مناطقنا من الحمد ما يوحيه كالك
وفي صدورنا من الاجلال ما يرفعه بهاؤك ، ما بيننا من المودة لاتجده مدة ولا تخلق
له جدة . نعيذه من حاجة للتجديد ، واستدعاء للزبد فلا المواصلة تربيته ، ولا المماهلة
توهيه . نعم ان ما نحفظ لك في الانفس هو تحلى فضلك ، ومثالا لعلائك ونلك
وذلك الخالد بخلود الارواح ، الباقي في تفانى الاشباح ... الخ » تلاحظ في هذه
الرسائل حرارة صادقة ، وتأثراً بالوقف الجديد ، وحسن مهانة الايام ومصابرتها

ويظهر أن هذه الفترة الأولى في سورية قضاهما الاستاذ بين درس وتحصيل ، وربما في درس اللغة الفرنسية أيضا ، ولكنه على كل حال كان متصلا بحوادث مصر علما وخبرة وكذلك بحوادث الشرق ، وبأثار وأخبار جمال الدين الافغانى ولما انحدر جمال الدين الى باريس معترضا انشاء صحيفة (العروة الوثقى) كتب الى محمد عبدو يطلب اليه لقاء هناك ليضم جهده الى جهده في خدمة الشرق فلم يكن من استاذنا الا تلبية هذه الدعوة فشخص الى فرنسا فباريس حيث قى استاذاه وهناك أصدرتا صحيفتهما

وقد عثرنا على مجموعة لهذه الصحيفة (العروة الوثقى) التى لم يطل عمرها أكثر من ثمانية أشهر ، فاذا هى تمثل تلك النواحي التى شغلت فكر هذين الاستاذين ذلك العهد ، فناحية سياسية تتعلق بتصريف انجلترا وفرنسة في الشرق ، ثم بتفرد انجلترا في شئون مصر عقب هذا الاحتلال ، وتطاول أيدى الانجليز الى السودان ومنايع النيل والحبشة ، ثم تصريف اوروبا في الشئون الشرقية ولاسيما الهندو افغانسان وبلاد الفرس وتركيا والمغرب ولا شك أن المسألة المصرية شغلت في ذلك فراغا كبيرا وناحية دينية ترمى الى صلة الدين بالعلم ، وتحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الاسلام على طريقة السلف قبل تشويهه بالبدع والاساطير ، ثم تكوين وحدة اسلامية يتعاون بها المسلمون في تقويم شئونهم السياسية والاجتماعية ، وناحية اجتماعية تتناول الاخلاق والعادات والعمل على ايقاظ الشرق وبث روح الحمية والغيرة في نواحيه بشتى الوسائل على يتدارك ما فاتته ويهيب في وجه الاستعمار الاوربي وقد جاهدوا في ذلك مخلصين وإن لم يشهدا ثمار جدهما في الحياة

وقد تيسرت للاستاذ الامام في باريس وسائل جديدة فتحت أمامه أبوابا شتى للاستفادة والاستفادة منها اطلاعه على تلك الحياة الفرنسية الجميلة الذليلة التى حدثناك عنها ، ومنها دراسته اللغة الفرنسية واتصاله بمعارف حديثة غربية أو متعلقة بالشرق والاسلام فكان يناقشها في صحيفته مجبدا أو ناقدا دافعا ، ومنها تعرفه بجماعة من رجال فرنسة المشهورين أمثال رينان وهانوتو وله ولاستاذاه معهما مناقشات معروفة حول الشرق والاسلام ، ومنها تلك الحرية التى يشعر بها كل من هبط فرنسة من المجاهدين السياسيين ومنها اشتراكه مع جمال الدين في هذا

الصحيفة ، فهذا يفكر ويدبر واستاذنا يشاركه ثم يحرق ويذبح وقد كان لتلك الوسائل نتائجها فيما قدمنا لك من النواحي ، وفي المعاني التي تجددت بتجدد تلك الموضوعات وفي حرية الاسلوب وتخلصه من الشكاف الذي رأيت في عهده الازهرى وفي كتابته « بالوقائع المصرية » وهذا من مقتضيات الصحافة وحاجتها الى السرعة ولا سيما مقالاتها المترجمة وأخبارها السياسية والعلمية والبرقية ، . . . والحق أنا لا نستطيع هنا تصوير هذه الحلقة من تاريخ الاستاذ الامام باكثر من هذا الايجاز ، ومن يقرأ الصحيفة نفسها يمكنه الامام بميزاتنا ومناحيها . إلا أنا ننقل هنا تنقلاً من محتوياتها تقرب لك صورتها فيما كتبه بعنوان الشرف ، كلمة يهتف بها اقوام مختلفة من الناس إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون ، فئة ترى الشرف في تشييد القصور والتمالي في البنيان وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم واقتناء الجياد وركوب العربات وفئة اخرى تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب والزين بألوان الالبسة وأنواعها ، والتجلى بجلى الجواهر الثمينة . . . نحن نرى هذه الآوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ولكن لانظنها طمست عين الحق فيه حتى عموا عن ادراك خطئهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم ، ماذا يجد من نفسه المباهى بقصوره وولدايه ؟ ألا يحس من نفسه أنه وإن حاز منها أعلى ما يتصوره العقل فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستند شيئاً من الكمال وأن جميع ما حصله فهو اجنبي عنه وليس له نسبة اليه الا نسبة العلاء في تحصيله . . . الخ ، ثم يكسب تحت عنوان انحطاط المسلمين وسكونهم ونسب ذلك « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، إن للمسلمين شدة في دينهم وقوة في ايمانهم وثباتاً على يقينهم يباهون بها من عاداهم من الملل وأن في عقيدتهم أوثق الاسباب لارتباط بعضهم ببعض وما رسخ في نفوسهم أن في الايمان بالله وما جاء به نبيه صلى الله عليه وسلم كفاية لسعادة الدارين ومن حرم الايمان فقد حرم السعادات . . . المسلمون يحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة . مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان وظلم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه وهو فرض عين على كل واحد ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام . . . »

وقد كتب بعنوان العدالة الانجليزية مقالا منه : الركون الى العدالة والسكون الى
الامن من الامور الطبيعية في الانسان وهذه حقيقة أدركها الجنس الانجليزي
الشريف . لهذا تراء يحوب الاقطار ويتقلب في الامصار حاملا على واحدات قيمة
علم العدالة وعلى العائق الآخر لواء الامن والراحة رجاء أن يملك اهواء العالم
اجمدين وينال السكراماة في جميع انحاء المهوراة الا أنا نعتجب غاية العجب لطفلة
الناس من ألوان هذه الاعلام وفزعهم من الاستغلال بظلمها ومن تقيأه يوما فزع
الانتباز عنه في آخر ولو لفحه طيب جهنم ، هؤلاء الارلنديون من جنس الانجليز
وعلى دينهم وينطقون بلغتهم ولا يوجد بينهم وبين سكان بريطانيا العظمى فرق
الافيا لا بعد الاختلاف فيه خلافا حقيقيا من عقائد المذهب الكاثوليكي والبروتستنتي
ويصح أن يقال انه خلاف في فروع الدين لافي اصوله وجزيرة ايرلنده تعد
جزءا أصليا من مملكة بريطانيا وسكانها يعدون عنصرا داخلا في قوام الامة
وعليهم بسط جناح الرحمة الانجليزية من اجيال طويلة حتى حسب الجميع امة واحدة
ومع ذلك ترى آلافا مؤلفة من الارلنديين يهجرون أو طاهتهم ويهاجرون الى
امريكا ويتخذونها سكنا لهم فرارا من عدالة الانجايز ، وفي كل يوم ترى المحترقين
بنيران الحمية منهم يتخاطرون بأنفسهم في أعمال يقصدون بها هدم السالطة الانجليزية
واهلاك القائمين بها . . . هل جلاء الارلنديين وتهاقنهم على الموت وسآمتهم من
الحياة في معاندة السلطة الانجليزية ناشيء عن نفرتهم من العدل وكرهتهم للراحة
والميل اليهما طبعي في فطرة البشر ؟ أظن لو كان عدلا حقيقيا يعرفه بنو الانسان
لما نبت عنه الطباع . . . أن كان هذا العدل لا يوافق اذواق المتفقين معهم في
الجامعات السابقة فكيف ترجى ملائمتهم لاذواق الذين لانسبة بينهم وبينهم ولا صلة
تجمعهم معهم لافي لغة ولا جنس ولا دين ؟ هذا النوع البهيج من العدل ظهرت له
آثار في البلاد الهندية . . . ومن ستين دخلوا مصر وهي أرض الراحة والسلام
واهلوها في رغد من العيش وأمن من الغوائل فاذا هي اليوم ببركة العدل الانكايزي
وحسن الادارة البريطانية أرض الفتن ومجالات الحروب ومضارب الخلل والفساد
ومع كل هذا ترى الانجليز لا تأخذهم ريبة في أنهم عادلون قوامون بالقسط وأن
حلولهم في أي قطر وسلطتهم على أي شعب مقرونه بالسعادة والرفاهة والامن

والراحة جاء في رسالة تلغرافية من مكاتب الشمس في القاهرة ان العساكر الانكليزية انتشرت في شوارع القاهرة شاذية السلاح لتعزيز قوة المحافظين ، والحامل على ذلك ماتأكد عند حفاظ العدل من الانكليز أن في تلك المدينة جمعيات جهرية أو سرية أو أن فيها أشخاصاً مصريين يحبون بلادهم ولا يودون أن يكون السلطان في حكمومتها لاجنبى عنهم الخ ،

وأظنك لا تعجب بعد هذه الفقرات اذا علمت أن هذه الصحيفة قد صودرت في مصر والهند حيث النفوذ الانكليزي ، وأذيع في القاهرة «ممشور» بعقاب صارم . عمل بمن يلتمس هذه الصحيفة أو يقرؤها ، ومع هذا فقد كان لتلك المقالات والأخبار مدى كبير لاني مصر والهند فقط بل وفي الشرق كله والغرب ايضاً والحق أن هذه . صحيفة قي متانة أسلوبها وقولها ، وفي قوة حجتها ونزعتها الحرة ، ثم في موضوعاتها الشرقية الوطنية كانت ، فريدة تمثل صيحة الشرق في وجه الغرب تلك الصيحة الخالصة الحرة الجريئة

والى هنا يستطيع أن يميز هذا العهد الصحفي للترجم يتجدد في الموضوعات والمعاني كما أسلفنا وكذلك في الاسلوب الذي تحرر من التكلف ووصل الى غاية بعيدة في البلاغة الصحافية ، والصفاء المتدفق الحار

وقد تنهت الجحيزة الى خطر هذه الصحيفة على نفوذها في الشرق فرصتها ووقفت لها في كل سبيل حتى خفت صوتها بعد ثمانية أشهر ظهر أثناءها ثمانية عشر عدداً آخرها في ذي الحجة سنة ١٣٠١ هـ وعلى هذا الاثر بقي جمال الدين في اوربة مدة ثم تنقل بينها وبين بلاد الشرق لدواع حمله على ذلك وأخيراً توفي بالاستانة سنة ١٢٩٧ م ، وأما الاستاذ محمد عبده فقد عاد الى سورية ثانياً حيث جدد جهاده .

مر الاستاذ أثناء عوده الى سورية بتونس فمكث فيها سنتين يدرس ويتعرف أحوال البلاد المغربية وربما لها العظام ملوكا وامراء وعلماء ، ويظهر أنه لم يتح له هناك نشاط عملي لسلطان فرنسا هناك وادهم وسائل النشر القوية فقصده الى سورية واستقر هناك ثانية ، ولم ترض له نفسه الهامة بالهدوء فعمد الى الإصلاح

في أسلوبه الاول وهو التربية والتعليم واعداد العقول لحياة دينية اجتماعية جديدة وقد ظهرت هذه الجهود في عدة أشكال ، التدريس والتأليف والصحافة ورسائل إصلاحية . . . اما التدريس فقد قام به في « المدرسة السلطانية » هناك وظاهر أنه كان يدرس الدين الاسلامي واللغة العربية فأمل على الطلبة مذكرات وشروحات كانت بعد كتباً ذاتة مفيدة . . . وأما التأليف فكان متصلاً بالتدريس اتصالاً قوياً ظهر ذلك في « رسالة التوحيد » التي تعد في أسلوبها وقوة حجتها ، بحثاً طريفاً حرص عليه الناس ، ودرس في المعاهد ، وترجم الى اللغات الاخرى . . . وفي ترجمة رسالة « الرد على الدهريين » من اللغة الفارسية ومؤلفها جمال الدين الافغانى ، وقد ساعده في الترجمة أحد الافغانين المسمى « عارف افندى ابا تواب » صديق الاستاذ وملازمه في رحلاته وتليها رسالة في القضاء والقدر بين فيهما أثر الدين في الحياة ولزومه للمجتمعات ورد على الملحدين ، وقد شرح « نهج البلاغة » جمع الشريف الرضى من كلام على بن أبي طالب وسواه ، وكذلك مقامات بديع الزمان الهمداني وفي الشرحين ظهر ذوق الاستاذ وتمكنه من فهم أسرار اللغة وبلاغتها . . . وأما الصحافة فقد نشر في « ثمرات الفنون » هناك عدة مقالات بين أيدينا منها مقالة عنوانها (الانتقاد) صدرها بقوله :

ما وعظك مثل لاثم وما قومك مثل مقاوم

الانتقاد نفثه من الروح الالهى في صدور البشر تظهر في مناطقهم سوقاً للنقص الى الكمال وتنبيهها يزجج السكامل عن موقفه الى طلب الغاية مما يليق به ، الانتقاد قاصف من اللائمة تنفخ عنه القلوب وتنشق الالسنه ، لتقرع الناقصين في اهلهم ودفع طلاب الكمال الى منتهى ما يمكن لهم ،

جعل الله للحياة قواماً وقوام الحياة بالادراك . . . الخ

وأما رسائله الاصلاحية فتلاّت وظلها ناطقة بمقيدة الاستاذ وهي ان الاصلاح من ناحية الدين في مقدمة الوسائل لأنها من المسلمين والشرقيين جميعاً ، ومن ناحية أخرى تعد مبدءاً لتغلب الاصلاح الدينى على أنواع الاصلاح الأخرى في حياة الاستاذ فكاد ينصرف له عاكفاً وكانت تركيا في حال ضعف يستدعى الانتباه . . . رفع احداهما مع جماعة من وجهاء المسلمين في بيروت

إلى شيخ الاسلام بالاستانة سنة ١٣٠٤ هـ شرح فيها أحوال الدولة ووسائل التعليم المدني والديني التي تنهض بها وما يجب أن يكون في رجال الارشاد والتعليم ، والثانية دفعها الى والي بيروت قصد لإصلاح سوريا ذكر فيها أحوال البلاد وتأخيرها والطوائف الدينية بها وما يجب أن ينتهج نحوها لإصلاحها واتقاء اضرارها السياسية والاجتماعية ، وأما الثالثة فيظهر أنه كتبها لخل أولي الأمر هنا على العناية بالتربية الدينية والتعليم المدني وعرض فيها للأزهر ودار العلوم والمدارس النجيرية والعالية وربما كتب هذه في مصر بعد عودته ... وله في سورية عدة رسائل أخرى في الشكر والإصلاح والتعازي كان يرسلها الى معارفه في مصر أو المغرب أو غيرها ولا تكاد تجد رسالة منها الا لغرض سام مفيد

فأنت تجد أن الأستاذ في هذا العهد امتاز بالتأليف الديني والأدبي ، وبمحاولة الإصلاح من طريق الدين أكثر من غيره ، والميل الى الهدوء نوعاً ما ... ولما ماتت زوجته الأولى تروج في سورية من « بيت حماده »

وقد لبث الأستاذ على هذا المنوال معلماً مؤلفاً مرشداً حتى اذا كانت سنة ١٣٠٦ هـ ، ١٨٨٧ م عاد الى مصر وقد تخطى الأربعين ، سيفاً حاداً ، ناضج الفكر تام التكوين تستقر في نفسه معارف شرقية وغربية وتسمو آماله الى مثل عاليا للتعليم ونظم للحكم والرقى العام فنفر اليه الناس يهنونه وقام أمراء الاسرة المالكة وصاحب الدولة الغازي أحمد مختار باشا وجناب « اللورد كرومر » يطلبون الشفاعة فيه من الخديو توفيق باشا الذي اتهم الأستاذ قبلاً بفتوى عزله فعفا عنه ، وبذلك أقام الأستاذ بمصر واستقبل عهداً جديداً من حياته

« ٨ » في مصر — إذا امتاز محمد عبده في مصر أول أمره بالدعوة الدينية الاجتماعية ، وفي المنفى بالصيحات السياسية والإصلاحية ، فانه في هذا الطور المصري يمتاز بالناحية العملية في كل ما نالته يده من الشؤون كأنه قد أخذ في تنفيذ رغباته وتطبيق نظرياته في دائره سلمية رزينة وترك تلك الحرب العامة التي تتعلق بالحال الخارجية لمصر والشرق ، ولكنه أخذ يحارب حروبا داخلية في نواح شتى يحاول بها تطهير جسم البلاد من عوامل الفساد المعنوي والمادى كذلك ... وقد تيسر

له كل ذلك لأمور منها استقراره في مصر بعد الاغتراب ، ومنها حسن صلته
بـكبار المصريين والاجانب الذين كانوا يتعاونون معه على علاج هذه الامة وعلاقتها
بغيرها ، ومنها اكتمال استعدادده ووقوفه على الحياة الغربية في أوربة والحياة الشرقية
في سوريا وبلاد المغرب ، ومنها تلك المراكز التي شغلها وكانت متصلة بكل نواحي
الحياة المصرية فتمكن من بعث تأثيره الى كل شيء هام . . . وقد ظهرت نتائج ذلك
في عدة مظاهر هي التدريس ، والتأليف ، ومناصب القضاء ، والافتاء ، والعضوية
في مجالس الشورى والازهر والاقواف ، والجمعيات ، الخيرية وأحياء الكتب
والعلوم العربية ، ثم الصحافة والمجلات والاحاديث العامة والخاصة والرسائل المفيدة
لما عفا عنه توفيق باشا أمر بتعيينه قاضيا في محاكم الاهلية فاستاء الاستاذ
وسعى أن يكون معلما في « دار العلوم » فلم يقبل « الخديو » ولعله خاف اتصال
الاستاذ بالناشئين والمتعلمين في هذه الفترة السياسية وما قد ينجم من ذلك فرضى
شيخنا أن يكون قاضيا فاشتغل في منها والزقازيق وكان مثال العدالة والنزاهة
ولو خالف نص القانون ثم ارتقى الى منصب المستشار في محكمة الاستئناف فكان
صاحب الرأي نافذ البصيرة في احكامه لفهمه روح الشعب المصري ونظم حياته
وفي سنة ١٣٠٧ هجرية قلد منصب الافتاء فكان فيه مرجع العالم الاسلامي جميعه
بدرس القضايا بنفسه وقد يخالف فيها القضاة الاهليين ويقضى بما يراه ، وكان من
لوازم المفتي أن يكون عضوا في مجالس الاوقاف الأعلى فساعد في تطبيق المحاكمة
على احكام الشريعة واقترح تأليف جماعة لتنظيم المساجد وادارتها . . . وعقب
تقليده الافتاء عين عضوا في « مجلس الشورى » فوفق بين الاعضاء وبينهم وبين
الحكومة ، واشترك في جميع مباحثه القانونية والاقتصادية والتشريعية واتخذ
وسيلة لتوير الرأي وتمويد الاعضاء دقة البحث والمناقشة . . . وفي سنة ١٣١٢
للهجرة عين عضوا في مجلس الازهر فكانت فرصة لاصلاحه الأزهرى النافع ،
كذلك اتخذ من رياسته جمعية احياء العلوم العربية التي أسست سنة ١٣١٨ هـ
وسيلة لحياء الكتب القيمة كالمعجمات وكتب الأدب والدين والحكمة والفلسفة
وكان الأداة الظاهرة في حياة الجمعية الخيرية الاسلامية (١٣١٠ هـ) لتعويد
المسلمين الاعتماد على النفس والتعاون والتعاطف ، وقد استمر مفتيا عاملا في سائر

تلك الجهات حتى مات رحمه الله سنة ١٣٢٣ هـ

ولكن الاستاذ في هذا الطور غلبت عليه الناحية الدينية فوجه اليها كل قواه معتقداً أنها أساس غيرها . في حين عناية قاسم أمين بالناحية النسوية واهتمام مصطفى كامل وغيره بالمسألة السياسية ، التي مال عنها استاذنا تقيّة أو يأساً مع رغبة صادقة في الحياة الدستورية ، ... وقد اتخذ الاستاذ لاصلاحه الديني موضوعين رئيسيين الأزهر والمحاكم الشرعية

أما المحاكم الشرعية فملاقتها بنظام الأسرة وحياتها ووجه اليها عنايته وهو في مجلس الشورى والافتاء فقدم مشروع احصاء مطول يقتضى تنظيمها باختيار الأكفاء ورفع الوظائف ، ووضع اللوائح الادارية والفنية وقد شكلت لجنتان لهذا الغرض قامتا باصلاح في حياته ، وآخر حلقة لهذا الاصلاح مشروع مدرسة القضاء الشرعى الذى نفذ بعد وفاته سعد زغلول مع عاطف بركات في عهد عباس الثانى ، واساس إصلاح تلك المحاكم ما رآه فيها وهو مفت فكان ينتقل في جهات القطر ومفتشاً ، دارساً يتبين العيوب ويهتدى إلى الرشاد ، وقد ترك مشروعه الاصلاحى بين يدى الحكومة رجاء انفاذه

أما إصلاحه في الأزهر فقد تناول الناحية الادارية والصحية والعلمية والخلقية فأُنشأ للأولى مجلس الادارة ونظم المرتبات وسعى في زيادتها وفي بناء مساكن الطلبة ، والثانية سعى في انشاء المصالح واعداد الاطباء واطباء الأزهر وتوابعه في الجهات وتنظيم المياه وملاحقة الطلبة وفحصهم بين حين وآخر ، وكانت الناحية الخلقية مشغلة بها بالجلوس بالتدريس والمناقشة وتعمد الطلبة وحملهم على الفضائل والسعى لهم ولجميع اللاجئين اليه في أسباب السعادة والخير وكثيراً ما كان قدوة صالحة بتضحية مرتباته وراحته لهم

أما الناحية العلمية فكانت ذات مظهرين التدريس والتأليف

كان أثناء الافتاء يدرس في الأزهر « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجاني وهما أحسن ما كتب في علوم البلاغة العربية الى اليوم وكان

الأزهريون في غفلة عنهما حتى أحياهما ومن يقرأ هذين الكتابين يستطيع الحكم على مقدار بلاغة هذا الأستاذ وذوقه الفني، كذلك كان معنيا بالمنطق والحكمة والفلسفة وعلم الكلام فأحيا كتبها ولا سيما المصائر النصيرية، في المنطق لأن تلك العلوم أدعى إلى حرية الفكر ونفاذ البصيرة وكان يحضر درسه الأزهريون وغيرهم من المسلمين وسواهم حتى تربى على يديه طلائع النهضة الحديثة، روى الأستاذ مصطفى عبد الرازق: كنت طالبا من صغار الطلبة أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر وكان أساتذتنا عفا الله عنهم لا يفتأون يذمون لنا الشيخ ويمثلونه خطرا على الدين وأهله وأهله، فتنأثر بذلك هفولنا الطفلة وكنت أقر بديني من أن النبي الأستاذ أو استمع لدروسه مع أنه صديق لوالدي، وحضرت درسه مرة لاشهد كيف تشبه وجوه الملحدين وتشبه معها عقولهم وقلوبهم، فلما رأيت الرجل في الرواق العباسي وسمعته يفسر كتاب الله قلت منذ ذلك اليوم اللهم إن كان هذا لحادأ فانا أول الملحدين

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافض
والحق أن هذا الشيخ كان شيئا جديدا في الأزهريين لبلاغته، وقوة حجته وحرية فكره، وسعة معارفه، وخبرته بالدنيا، واجتهاده في سيطرة الدين عليها حتى لا يكون غريبا لا ينفر منه الناس، ولكن الشيوخ كانوا أقرب إلى المحافظة يرون في القديم على خطئه جلالة، وفي الخروج عليه إثما، فكم فرق بين الرأي وكان التأليف من لوازم التدريس فكتب تفسير جزء عم، وسورة البقرة وغيرها من الآي وبدل تفسيره على براعة بلاغية وعلمية وتحلل من أخطاء السابقين، واتباع لرأي العقل الصائب صارفا النظر عن الأساطير التي علقت بتفسير القدامى من آثار اليهود والوثنيين وغيرهم من حيث لا يشعرون ومن أحسن ما كتب في هذا العهد كتابه الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية دافع فيه عن الإسلام أمام مزاعم المسيحيين أمثال رينان وهانوتو وغيرهما ممن أخذوا يهاجمون الدين تمهيدا للاستعمار مستبدلين على دعاويهم بالانحطاط الذي أصاب المسلمين لتهاونهم في أمور دينهم الداعية إلى

صلاح الدارين وأثبت في الكتاب أصول الاسلام وعلاقته بالحضارة مستعرضاً تاريخ المسلمين وما خدموا المعارف والعلوم بأنواعها . . . ذلك عدداً مقالات نشرت في الصحف وصفت فيها عقلية وأهلها وآثارها أو ناقش فيها كثيراً من علماء الشرق والغرب لا نستطيع هنا تفصيلها أو الإلمام بها

وإذا كان لا بد لنا من ذكر أمثلة لكتابه في هذا الطور فما كتبه أثناء مناقشته هانوتو ، يكتب بعض أرباب الأقلام من المسلمين في حكمة الحج ويقول إنه صلة بين المسلمين في جميع أقطار الأرض ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم فلهيهم أن يستفيدوا منه وهو كلام حق لكن لا ينبغي أن يفهم على غير وجهه فإن الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جهامة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضل من أعمالهم وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء وهو أمر محمود عند جميع الأمم التي تدعى بدين واحد خصوصاً عند الأوروبيين ، ومما كتبه ان الفيلسوف المعروف تولستوى لما حرم من الكنيسة لدعوته الى التوحيد ، أيها الحكيم الجليل ، لم نخط بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك . سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت في آفاقنا شمس من آرائك ألقت بين نفوس العقلاء ونفسك . . . ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس الى ما هداك الله اليه . . . ، وكتب الى بعض الأصدقاء : تناولت كتابك ولم يذكر مني تاسياً ولم ينه لذكرك لاهياً فاني يوم عرفتك لم يضرب عنى مثالك ولا تزال تتعثل لي خلالك ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لغتت بها ولحق لك أن تنبه على الناس أجمعين ؛ ولكن ستر الله عنك منها خير ما أودع لك فيها للترينما بالتواضع وتجعلها بالوداعة وتسعى الى ما لم يبلغه سماع فتكون قدوة لاختوانك في علو الهمة وبذل ما يعز على النفس في نفع الأمة زادك الله من نعمه وأوسع لك من فضله وكرمه ومتعني بصديق ولائك وجعلك لي عوناً على الحق الذي أدعوا اليه ولا أحيا الا به وله والسلام استمر الاستاذ بجاهد لنصرة الدين ، وترقية الأمة من طريقه ، صادقاً محتملاً

عداوة الرجعيين مدة تقرب من عشرين سنة بعد عودته من المنفى حتى أجبره العمل وعادوه المرض فاشير عليه بالسفر الى أوربة طلباً للراحة والصحة فغادر القاهرة الى الاسكندرية على هذه النية ولكن المرض آده وأجعله الموت هناك « ٩ » وفاته وتأينته — منذ زار الأستاذ السودان قبل وفاته بسنة أملت به الأمراض ، ولما زاره بالقاهرة الطبيب طلعت بك عرف أنه مصاب بالسرطان وقد وافق على رأيه الأطباء في الاسكندرية حيث ثقل عليه المرض أياماً فقضى عليه مساء الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٩٠٥ م وقد بلغ من العمر الثامنة والخمسين ، فنقلت جثته ثانى يوم من (باكوس) الى محطة الاسكندرية فى حفل رسمى سارت فيه الاسكندرية ثم نقلت الى القاهرة فى قطار خاص وشيعت جنازته الى مدفن المجاورين سارت فيها جميع الطبقات الحكومية والاهلية والاجنبية وكان مشهد لا ينظر به القاهرة الا نادراً ، وقد اشتركت جميع الصحف المصرية والاجنبية والشرقية فى تأييد الأستاذ وسرد تاريخه وآثاره واستمرت على ذلك أياماً ، وكذلك المجلات ، وتجاوبت الاقطار بمنعاه فكان نبأ مروغا وخطبا أليما ، وحسبك أن تعرف أن مراثية جمعت فى مجلد كبير مختصرة بمجملته شعراً ونثراً وأما تأينته الرسمى فكان عند قبره يوم الاربعين اشترك فيه حسن باشا عاصم وحسين باشا عبد الرازق والشيخ أبو خطوة وقاسم بك أمين وحفنى بك ناصف وحافظ بك ابراهيم ، كل خطيب تناول ناحية شرحها ، ونذ كرلك هنا مطلع قصيدة حفنى ناصف :

لم لاتجيب وقد دعوت مراراً يدفى سلوتك اربعين نهراً
ومطلع قصيدة حافظ الذى كان أشبه بشاعر الأمام
سلام على الاسلام بعد محمد سسلام على أيامه النضرات
ولنذكر ايضاً هذين البيتين للإمام نفسه قالهما من قصيدة له اثناء مرضه
ولست أبالي أن يقال محمد أبلى أم اكتظت عليه المآتم
ولم يكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمام
« ١٠ » صفته وآثاره -- كان الأستاذ مربوع القامة أو فوق ذلك قليلاً
ممتلئ الجسم متين البنية شديد العضل رشيق الحركة نشيطاً ، ملامح وجهه جميلة

يزيدها جمالا ومهابة لحية بيضاء تهلل بجمها مشرق ذي جبهة غراء انحسر الشعر عنها رويدا وارتفعت فسيحة ناطقة بالعقل والارادة والذكاء لعينه بريق ساحر يملأ الصدر هيبة وانجابا وصوته العذب المؤثر من جنود عبقرية أيضا . قال المرحوم قاسم بك أمين في وصفه : بلغت فيه طيبة النفس الى درجة تكاد تكون غير محدودة فان يجذبه الخبز كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع اليه ويسعى الى كل تقع للغير عام أو خاص ، فان ملجأ للفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين والمصابين بأى مصيبه ، وأهل الازهر الذين هم أكثر الناس احتياجا الى المساعدة لأنهم في وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم في ميدان حياتنا الجديدة ، يبذل اليهم ماله ويسعى لهم عند ولاية الامور بهمة لا تعرف الملل كأنما كان يسعى لأمر انسان لديه بل كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء اليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه في ترويج عبارات القذف والقيمة التي لم تنقطع عنه يوما مدة حياته . كان الاستاذ يرى ان الشكر لافائدة منه مطلقا وان التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في إصلاح فاعله ، وأنت تستطيع ان تتأمل ما قدمنا لك من تاريخه لتعرف مواهبه واضحة كما تستطيع أن تراها في آثاره رحمه الله .

وأما آثاره فهي تاريخه الذي جمع منه السيد رشيد رضا جزئين الثاني فيه قسم من منشأته والثالث فيه مراثيه ولم يكتب الاول في سيرته للآن ، ثم رسائله في الاسلام والنصرانية وإصلاح المحاكم الشرعية ورسالة التوحيد وما فسر من القرآن وترجم من الفارسية ونشر في الصحف والمجالات ، وكذلك مؤلفاته الدينية التصوفية ، وشرحه نهج البلاغة ومقامات الممداني ثم احبائه كثيرا من الكتبة القديمة في البلاغة ، والأدب ، والحكمة والفلسفة والمنطق عددا ذكراته في الثورة العراقية ولها تدل على ان الاستاذ ضحى بحياته لغيره بحسبها عند الله تعالى

ادب الشيخ محمد عبده

تتصل الحياة الادبية للاستاذ الامام بحياة عصره الادبية أيضا لأن الاستاذ إحدى حلقات الاتصال بين طورين اجتاز الادب ولا سيما النثر اولهما الى ثانيهما

على يديه هو وشيعته أمثال عبد الكريم سليمان وسعد زغلول وحفنى ناصف وبعض كتاب سورية ومصر ، فقد كان النثر العربى أول هذا العصر الحديث يتهجر فى قيدين أورثاه الفقر والتشويه ، هما الخلو من المعانى والموضوعات القويمة التى تتوقف على الدراسات العلمية والفلسفية والأدبية الراقية ثم التسكع فى المحسنات البدئية التى يلجأ اليها الكتاب لمدارة فقرهم العقلى كما تلجأ المرأة إلى الأدهان والحلى حين يعوزها الجمال الطبيعى وفى منتصف هذا العصر أخذ النثر يتحلل من هذين القيدين بتأثير الحياة العلمية والفلسفية التى انبعثت من أوربة إلى سورية فمصر خملت الكتاب على العناية بالمعانى والموضوعات وساعدها سـ ولا سيما فى مصر احياء الأدب القديم على يد المتخرجين فى دار العلوم وغيرها وباجتهاد المعاصرين أمثال استاذنا المترجم حتى رأينا فى هذا الطور الأخير أدبا ، ونشأ بحرية الاسلوب وقوة المعنى وقيمة الموضوع

محمد عبده إذن ناثر لا شاعر ونثره فى جملة حلقه اتصال بين الاسلوب الركيك وبين الاسلوب الخالى الصافى القويم بل اقرب إلى الحرية كثيرا وقد ذكرنا لك ميزاته فى كل طور اثنا المقالة الثانية ولكن هذا الاستاذ لم يكن كاتباً فقط بل كان مدرسا ايضا ، ولم تكن كتابته او تدريسه قائمين فى باب واحد بل شمل عدة ابواب كالدين والادب والمنطق والفلسفة والسياسة والاجتماع ، وكل هذا من شأنه ان يجعل للاستاذ فنا نثرية متنوعة ، وأن يطبع أسلوبه عدة طوابع تختلف باختلاف هذه الفنون والاطوار ولندكر ذلك فيما بلى

فنونه النثرية (متناول كلامه)

أما تلك الأبواب التى كتب فيها فيمكن إجمالها فى الدين ! والادب والسياسة والاجتماع ، وتجمعها كلمة الاصلاح تظهر كتاباته الدينية فى مقالاته الصحفية التى ناقش فيها الغربيين أو شرح مسائل عامة قصد نحو الخرافات وإيضاح الغوامض وفى الكتب التى ألفها أو فسرهما ، وهو فى الصحافة يطنب ويبسط ، وفى الكتب عالم واضح ، منطقي حكيم ... وقد غلب هذا الباب عليه بعد عودته من المنفى

وجهد الأدبي كان واضحاً في تدريسه ورسائله وكتابات المرسلات الحرة ذات الأسلوب الجزل والمعاني القويمة والموضوعات المتنوعة تبعاً لدراسته وثقافته التي شرحناها سابقاً ، كذلك ظهرت في إنشائه دراسة الأدب في الأزهر ، وأحيائه كتبه النافعة وشرحها وتعمده الصحافة وإصلاحها

أما السياسة فإظهار مجال لها صحيفة العروة الوثقى التي اشترك في تحريرها مع جمال الدين بياريس وفيها ظهر أسلوبه الصحفي الممتاز بالحرية اللفظية التامة وكذلك بحرية الرأي والعقيدة سواء ما يتعلق بمصر وما يرتبط بالشرق والغرب

ويدخل في الاجتماعيات ما يتعلق بالاخلاق ، ونظام الاسرة ، والمنتديات والزينة والتعليم وترقية العقول وتحريرها وقد اشتغل بذلك في المنفى وبمصر ، ولا سيما بعد انصرافه عن السياسة وقد مرت امثلة هذه الفنون فيما مضى إلا اننا نورد هنا تلك القطعة وهي مما كتبه في العروة الوثقى بعنوان الأمل وطلب المجد ... أنه لا يأس من روح الله الا القوم الكافرون ...

ومن يقنظ من رحمة ربه الا الضالون ... تلك آيات الكتاب الحكيم تنبي عن سر عظيم اختص الله به الانسان ورفع به على سائر الكوان ليبلغ به المقام المحمود ويجوز ما اعدته له العناية الالهية من السكال اللاتق ، راجع نفسك واصغ لمناجاة سرك تجد في وجدانك ميلا قويا وحرصا شديدا يدفعك الى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب أبناء جنسك ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتامها تجد مثل ذلك في ظلتها كما هو في آحادها تبتغي رفعة المسكاته في نفوس الامم سواها ذلك أمر فطري جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتبئاً ، ليس من السهل على طالب المجد وعلو المسكاته أن يصل الى ما يطلب ولكنه يلاقى في الوصول اليه وعراً في السبل وعقبات تصد عن المسير ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولا ينقص ميله ، يقطع شهابا ويعاني صعبا حتى يرقى ذروة المجد ويتسنى شاطئ العزة ولو قام في وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسلطان رأيه يتملأ ويتصجر ثأماً يتقلب على الرمضاء ، لو سهر الحكيم الخبير أعمال البشر ونسب كل عمل الى غاية العامل منه رأى ان معظمها في طلب الكرامة وعلو المقام ، كل على حسبه ، وما

يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعاق بشئون الشرف ،
هذه خلة ثابتة في الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المأم
الى أصحاب الأمر والنهى كما يتنافس أهل طبقة في أسباب الكرامة بينهم ويأنف
من ضفته فيهم ويحرص على ما يحمله من قلوبهم محل الاعتبار حتى اذا بلغ الغاية مما
به الرفعة عندهم تخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى ونافس أهلها في
الجاه ولا يزال يتبع سيره مادام حيا يخطر في بساط الأرض ذلك لأن السكال
الانسانى ليس له حد ولا تحده نهاية وليس في استطاعة أحد من الناس أن يقنع
نفسه ويعتقد أنه بلغ من السكال حداً ليست بعده غاية ، سبحانه الله ماذا أخذت
حجة الشرف من قلب الانسان وماذا ملكت من أهوائه ؟ بعده ثمرة حياته وغاية
وسجوده حتى أنه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه أو عند مسه والخوف
من سلبه ، أرايت أن فقيراً ذا اسبال لا يؤبه له اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه
بفعلته تهميه أو قذفة تشينه يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التي هو فيها فيرتكب
مخاطرة ربما تفضي به الى الموت وان القذف أو الاهانة مانقصت شيئاً من طعامه
ولا شرابه ولا خشفت مضجعه في ميته ؟ لاف مؤلفة من الناس في الأجيال
المختلفة والأجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم الى المهالك وماتوا دفاعاً عن الشرف
أو طلباً للكرامة والمجد ، جل شأن الله لا يهنا للانسان طعام ولا شراب ولا
يلين له مضجع إلا ان يلاحظ فيه أن مانال منه أعلى مما نال سواه مع وقوف بعض
من الناس على ذلك ليعترفوا له بالأعلوية فيه ، كأن لذة التغذية والتوليد إنما
وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة فما ظنك بسائر اللذات ؟ كم يعاني
الانسان من التعب البدنى ولم يقاسى من مشاق الأسفار وكم يخاطر بروحه في
اقتحام الحروب والمساكنات وكم يتحمل في الانقطاع عن اللذات مع التمسك
منها ، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخاراً أو ليحفظ ما أتاه الله منه ، ما أجل
عناية الله بالانسان لا يعيش الا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل لذة دون الشرف
فهي وسيلة اليه بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعر يسلكها الحى الى ما يستطيع من
المجد وفى نهاية الأجل يفارقها قرير العين بما قارب منه آسف الفؤاد بما قصر عنه
ما هو المجد الذى يسعى اليه الانسان بالالهام الألهى ويتخوض الاخطار فى طلبه

ويقارع الخطوب في تحصيله ؟ هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد وتذعن له بالاعتلاء وتلقى اليه قياد الطاعة ، يكون هذا له ولكل من يدخل في نسبته اليه من ذوى قرابته وعشيرته وسائر أمته فتنفذ طبعته اليه وكلية المتصاين به والمتتبعين معه في شئون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الاوصحاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الأولى فما كان يحسبه طالب المجد عائداً الى نفسه بالمنفعة يبارك فيه مدبر السكون فيفيض خيره على بني جلدته أجمعين . واهـ ، تلك حكمة بالغة اذا نال الواحد من الأمة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها من السؤدد : نعم وهل تال ما نال إلا بمهونة سائر الآحاد منها ؟ (ذلك تقدير العزيز العليم) ماذا يستطيع المجاهد وحده وماذا يسلبه من سعيه إن لم يكن له أعضاء من بني قبيلته ؟ فمن كان همه ان يصعد إلى عرش العزة ويرقى الى ذروة السيادة فعليه ان يهيئ نفسه والمنتهمين اليه لتحصيل كل ما يعد في العالم الانساني فضيلة وكاملاً ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والالهى ، وما أشد ما تحمل النفوس من في قضاء بعض الوطر مما يتصل به ، وما أعظم الحامل الانفس على تجسم المصاعب لنيل ما تميل اليه من هذا الأمر الرفيع . ما هذا الباعث الشريف الذي يسهل على الارواح كل صعب ويقرب كل بعيد ويصغر كل عظيم ويلين كل خشن ويسلبها عن جميع الآلام ويرضيها بالتعرض للتملكة ومفارقة الحياة فضلاً عن بذل كل نفيس والسماح بكل عزيز ؟ هذا الباعث الجليل وهذا الموجب الفعال هو الامل . تلاحظ في هذا القسم من المقال الاجتماعي الخلقى أن الالوب يمتاز بالجزالة وأنس الالفاظ ، والاستشهاد بآى القرآن . والسجع الطبعى أحياناً ، وتنوعه خبراً واستفهاماً ، والميل الى الاطناب تقريراً للمعنى وتوضيحاً للغرض وتجد في المعانى الاسلوب المنطقى للاقناع ، وتطبيق الفكر بين جميع الطبقات ، والناثر بالدين من حيث توفيق الله وقدرته وعلاقتها بالناس وأعمالهم ، ثم توضيح انتفاع الفرد بسعيه وانتفاع الناس به

الفاظه واسلوبه ومعانيه ومميزاته

(١) تجد في الفاظ الاستاذ كلمات هرجية كالتلغراف والواوور ، واخرى

يكية مثل سعادتلو او افندم لذيوعها في عصره الانتقالي وعدم تعريبها أو وضع مكانها ، كذلك تجد مصطلحات علمية أو سياسية أول أمره وفي باريس ثم في مؤلفاته لازومها ، ولستذك لا تراها يتورط في الغريب المويص أو الخطأ الهرفي الا ما اشتهر بالجمية والاختراعات ولا يقع في التناثر اللفظي أو الثقل على السمع (٢) وقد مر بأسلوبه اطوار ثلاثة ، فكان أيام التلمذة بالأزهر مسجوعا ريك فيه تكلف ومصطلحات علمية من اثر الدراسة المنطقية ، والكتب الازهرية والصوفية ، يميل فيه الى اسلوب القدماء ومناحي المناطق في البرهنة ، ولما درس في دار العلوم وقرأ الكتب الادبية وقويت صلته بالصحافة والعلوم الحديثة مال الى التحلل من تلك القيود السالفة وقويت عنايته بالمعاني والموضوعات ويرى من البدعيات كثيرا وغلب عليه الأسلوب الادبي إلا أنه لم يتحرر تماما من المنهج القديم واحترام اللفظ ويشتمل هذا في بعض رسائله وفي بعض مقالات العروة الوثقى ولما تأثر بالحصارة الغربية ثم اضطر الى مناقشة غيره والوقوف في وجه معارضيه ، والسرعة في التحرير والعناية بتقريب القراء ، وتوضيح الفكر رأينا اسلوبا صافيا بريئا من تلك القيود يمثل الاسلوب الكتاني الراقى ذلك العهد وهو في كل الاطوار يستشهد بالقرآن والسنة وحكم السابقين واللاحقين ويميل الى الاطناب في مقالاته ويمتاز اسلوبه العلي التاليف بالوضوح والسلاسة وحسن الترتيب والقرب الى طبقات الناس ، وسمو الجدل والبرهنة

(٣) وكانت مهانيه واضحة مرتبة ، جديدة لحسن تربيته العلمية وصلته بالحياة في شتى جهاتها الدينية والاجتماعية والسياسية والادبية ، وارتفاعه برحلاته ، وكثرة تجاربه ، ونفاذ بصيرته ، وشدة ذكائه ، وغلبة الدين عليه فامتاز عن الازهرين بصلته بالجمهور وامتاز عن غيرهم بالمأمة باكثر ما في عصره

(٤) يمتاز الاستاذ بأمور منها توسطه بين عهد الجود الادبي في النثر وعهد الحرية والحياة فساعد في هذا التحول ، ومنها ميله الى الجزالة والارتفاع بالقرآن والسنة استشهادا أو تأثرا بسبب طول دراستهما ، ومنها ميله الى حرية الفكر والأسلوب المنطقي وتوفيقه بين الدين والمدنية ودرس الدين من منابعه الاولى قبل عصر الخلاف ومنها اصلاحه الشامل في الأزهر والمحاكم الشرعية والمجالس

المتنوعة والجميـات ، ومنها نظريته في الاصلاح البطيء الناتج وعدم الميل الى الطفرة متأثراً بالدين وبسيطته على الحياة .

هو أزهقه بخبره من كتاب عصره

حدثناك أن الاستاذ محمداً عبده توسط النهضة الأدبية الحديثة ولاسيما نهضة النثر العربي الذي كان أكثر انطلاقا في سبيل التجديد واطوع لهوامل النهضة وأقبل لصور الحياة المستحدثة من ذلك الشعر الذي سار على مهل متأثراً كثيراً بتقليد القدماء حتى في المعاني والموضوعات وطرائق الاخيلة والتصورات... فالاستاذ في عهده الأول يمثل النثر المسجوع الرليك المقيد بالمصطلحات العلمية والاساليب المنطقية والتراكيب المضطربة ، والاستاذ في عهده الاخير يمثل النثر الحر الخالص الممتاز بالجزالة والخلوص من المحسنات البديعية ، والعناية بالمعاني القويمة الواضحة فتاريخه السكتاني يمثل انتقال النثر — في مصر — من عهد قديم الى آخر حديث وان لم يبلغ في السلاسة والبراعة ما بلغه بعد الحروب الاخيرة متأثراً بالثقافة المتجددة فنهاية عصر الاستاذ هي نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ورأس الخلقتين الاوليين من القرن الهجري الحالي

وقد عاصر الاستاذ جماعة من السكتاب والشعراء تعاونوا جميعا على نقل الادب الانشائي من حال الاحتضار فالجمود الى حال الحياة والحرية نشأوا في . سورية ومصر ثم قضت الاحوال أن يستقر أشهرهم في مصر لغناها وقوة حياتها ، منهم الصحفيون والمؤلفون والمدرسون والشعراء ، نختص بالذكر منهم تلك الطبقة التي ذاع صيتها وكان بينها وبين الاستاذ مناسبة ما ، فالبارودي واسماعيل صبري وحفني ناصف وابراهيم المويالحي ومصطفى كامل ومحمد عبده والشيخ علي يوسف وسعد زغلول ، جميعهم تضافروا على تمثيل النهضة الحديثة في إحدى حلقاتها ، ولترك الشعراء فصاحبنا ليس بشاعر ، ولنلاحظ ان سعد زغلول قد امتاز بالخطابة والكتابة السياسية والقانون ويشبه في هذا مصطفى كامل ، وأما حفني ناصف فقد عرف بالشعر كما عرف بالنثر وهو فيهما معنى بالجزالة وانتحاء مذاهب الاقدمين عن ماشوا صدر الدولة العباسية ووسطها ، ومحمد عبده في أسلوبه

الاخير أكثر شهماً بسعد زغلول ، بقى الاستاذ ابراهيم المويلحي فهو أيضاً صحفي ناقد أدبي يمتاز بأسلوبه النعني ذي الدنابات الغربية المضحكة وقد أنشأ صحيفة نزهة الافكار التي أغلقت بعد أول أعدادها خوفاً منها كما سبق وحرر في العروة الوثقى ، فهو يشبه الاستاذ في مقالاته عن القسطنطينية ، وعن مصر وقد توفى سنة ١٣٣٣ هـ . وأما الشيخان علي يوسف ومحمد عبده فكلاهما شيخ أزهرى معنى بالدين واللغة العربية حريص على رقى الامة وتهذيبها لقيا من الغناء والمشاق في سبيلهما كثيراً ، . وان غلبت على محمد عبده الناحية الدينية ، وغلبت على الشيخ علي يوسف الناحية السياسية . وكان محمد عبده يحاول إرضاء آماله وآمال الشعب الناهض حينما كان علي يوسف يترضى الامر الواقع سياسياً ويستوحى عرش البلاد ، وكان محمد عبده كاتباً عالمياً مؤلفاً خطيباً ، وكان علي يوسف كاتباً صحفياً ، يمتاز محمد عبده بالجزالة كما يمتاز صاحبه بالسلاسة يرى محمد عبده اصلاح الدين وتطهيره من الخرافات ومن عادات أصحاب الطرق ، وعلي يوسف ترأس هؤلاء . وكان تقييمهم يتسامح بذلك ويفيد منه ، ومحمد عبده شغل عدة مناصب أفاد منها البلاد حقاً . . و آخر الامر نضع محمداً عبده بين مقدمة هؤلاء جميعاً إن راعينا الاصلاح وقوة الاسلوب الكتابي والتأليف ولسكنه ثاني الشيخ علي يوسف في السلاسة والبراعة الصحفية ، وثاني سعد زغلول في عبده الاخير . وبعد فانشعر بأننا قد وضعنا بهذه الصفحات أساساً صالحاً لدراسة هذا الاستاذ في المستقبل دراسة مفصلة ناضجة تمنى التوفيق اليها والسلام ؟

احمد الشايب

محتويات الكتاب

صفحة	صفحة
٣٧ أدب الشيخ محمد عبده	٣ الشيخ محمد عبده
٣٨ فنونه الثرية - تناول كلامه	٤ عصره السياسي
٤١ الفاظه وأسلوبه - معانيه وميزاته	٧ عصره الاجتماعي
٤٣ موازنته بغيره من كتاب عصره	١١ حياته وبيئته - تأثيرهما في نفسه ومظاهر ذلك في نثره

مقدمة الطبعة الثانية

هذه رسالة صغيرة كتبتها منذ سنين لطلبة المدارس الثانوية ، وقد رجوت في آخرها ان أعود إليها بالدرس الشامل العميق . ولما كان يعوزني الفراغ الكافي من ناحية وقد ارادت « دار الثقافة للطبع والنشر » اخراجها من ناحية أخرى - لم يكن بد من تقديم الرسالة كما هي الى القراء ، شاكرًا لهذه الدار الناشئة جهدنا راجيًا لها التوفيق والنجاح

احمد الشايب

القاهرة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣١